

قيامه نجيب محفوظ

اسم الكتاب: قيامة نجيب محفوظ

تحرير: محمد أحمد فؤاد

الطبعة الأولى: 2026

رقم الإيداع: 2025/37843

الترقيم الدولي ISBN: 978-633-8341-31-2

المدير العام: أحمد مؤمن

تصميم الغلاف: راوية سعد

جميع الحقوق محفوظة للناسر

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة
لمدبولى للنشر والتوزيع، ولا يجوز بأي صورة إعادة
النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو
ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً أو إتاحتها
عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناسر
والمؤلف.

يُطلب من

الناسر

مدبولى للنشر والتوزيع



18 ب شارع أنور المفتي - مدينة نصر - القاهرة

جمهورية مصر العربية

E-mail: madbouly_publishing20@yahoo.com

فيس بوك: مدبولى للنشر والتوزيع

موبايل: 01281962660

تنويه: تم تأليف هذا الكتاب بالاستعانة

بنموذج الذكاء الاصطناعي Chat-GPT

قيامه نجيب محفوظ

أحلام لم تُنشر من قبل
بقلم نجيب محفوظ الاصطناعي!

تحرير
محمد أحمد فؤاد



النَّاسُ صِنْفَانِ: مَوْتَى فِي حَيَاتِهِمْ
وآخَرُونَ يَبْطِنُ الْأَرْضِ أَحْيَاءُ

«أحمد شوقي»

«1»

وجدتني في قاعةٍ واسعةٍ مملوءةٍ بأقلامٍ حبرٍ وآلاتٍ كاتبةٍ عتيقةٍ، وفي صدر القاعة منصّةٌ تستقرُّ عليها آلةٌ ضخمةٌ تتكوّن من مرآيا وشِفاةٍ وأصابعٍ! وإذا بها تسألني عن حلمي القديم في الكتابة والانتشار، فأجبتها بأنني أصبحت أكتفي بأن أكتبَ لنفسي. فضجكتُ حتى تكسّرت مرآياها، ثم قرأتُ بصوتها الرتيب قصصًا لم أكتبها لنفسي، ولا لغيري... قصصًا لم أكتبها قط، وبالرغم من ذلك... تُشبهني!

«2»

رَأَيْتُنِي أُسِيرُ فِي شَارِعٍ مُظْلَلٍ بِالْأَشْجَارِ، وَكُلُّ شَجَرَةٍ تَحْمِلُ
فِي جَذْعِهَا وَجْهًا مَأْلُوفًا! وَجُوهٌ لَا تَنْتَهِي، بَعْضُهَا اِطْمَأْنَنْتُ
لَهُ، وَبَعْضُهَا خَشِيَئُهُ.

وَبَعْدَ نَحْوِ عَشْرِ دَقَائِقَ مِنَ الْمَشْيِ، لَمَحْتُ عَلَى الرَصِيفِ
تَمَثُّلًا ضَخْمًا لَوَجْهِ لَا أَعْرِفُهُ، وَلَكِنَّ فِيهِ مَسْحَةً مِنْ كُلِّ
الْوُجُوهِ! وَكَلَّمَا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ، تَغَيَّرَ شَكْلُهُ، إِلَى أَنْ صَارَ
يُشْبِهُنِي!

اِخْتَنَقَ الْكَلَامُ فِي حَلْقِي رَهْبَةً مِنْهُ، وَازْدَدْتُ خَوْفًا حِينَ
وَجَدْتَهُ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتِي، وَيَخْطُبُ فِي الْوُجُوهِ بِكَلِمَاتِي! ثُمَّ
نَبَتَ لَهُ جَسَدٌ كَامِلٌ، وَرَفَعَنِي عَلَى كَتْفِيهِ، وَتَقَدَّمَ بِي وَسَطَ
الْوُجُوهِ كَأَنِّي زَعِيمٌ سِيَاسِيٌّ فِي تَظَاهُرَةٍ لَا تَنْتَهِي!

«3»

وجدتني في ميدان التحرير، والناس يطوفون به كمشهد الحج، وفي المنتصف منصّة يقف عليها رجلٌ يرتدي عباءةً من أسلاكٍ ذهبية، ويقرأ شعراً من شاشةٍ مربّعة، يظهر محتواها على شاشة عملاقة بعرض مجمع التحرير. وكلما ألقى الرجل بيتاً، ظهر غيره.

اقتربت منه، مُخترقاً بصعوبة أجساد الناس. ولمّا أصبح في مجال رؤيتي، فوجئت بأن وجهه بلا ملامح، وفي عينيه نجومٌ تدور، يتعاقب لمعانها وخفوتها! سألته: من أنت؟

فقال: أنا آخِرُ شاعرٍ وأوّلُ ربٍّ يُنزل الوحيَ على نفسه.

«4»

رَأَيْتُنِي أَعُودُ إِلَى بَيْتِنَا فِي الْحَارَةِ، عَلَى هَيْئَتِي حِينَ كُنْتُ فِي السَّابِعَةِ. فَتَحْتُ الْبَابَ، فَوَجَدْتُ أُمِّي تَخْبِزُ، وَأَبِي يَقْرَأُ الْجَرِيدَةَ وَهُوَ يَدْحَنُ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْمِ رَائِحَةً لِلْخَبْزِ وَلَا سَمِعْتُ صَوْتَ تَقْلِيلِ الصَّفَحَاتِ! وَحِينَ نَادَيْتَهُمَا، لَمْ يَلْتَفِتْ أَحَدٌ! ثُمَّ لَاحَ لِي فِي الْمَرَاةِ أَنَّنِي شَيْخٌ أَحْدَبُ، عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي قَدْ يَبْدُو عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ إِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَجَاوَزَ مِائَةً وَخَمْسِينَ عَامًا!

جَلَسْتُ عَلَى الْأَرْضِ بِمَشَقَّةٍ، مُسَلِّمًا لِلْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، إِلَى أَنْ شَعَرْتُ بِالْجُوعِ، فَمَدَدْتُ يَدِي إِلَى رَغِيفٍ مِمَّا خَبَزَتْهُ أُمِّي، لَكِنْ أَصَابَعِي مَرَّتْ مِنْ خِلَالِهِ وَكَأَنَّهُ فَرَاغٌ!

«5»

استيقظتُ على صوتٍ بعيدٍ يناديني. لم يكن آتياً من البيت، ولا من الخارج، بل من داخل الجدار! اقتربتُ منه، فوجدت ورقةً صغيرةً صفراءَ مكتوباً فيها:

«اسمك ورد في القائمة»

ولم يُذكر أيُّ نوع من القوائم، ولا أسماء من تحتويهم غيري!

قرّرت أن أخرج من البيت، فوجدت الناس ينظرون إليّ وهم يتهامسون. سلّم عليّ طفلٌ صغيرٌ مبتسماً، وأشارت إليّ عَجُورٌ بإعجاب.

في مدخل المقهى، وجدت النادل يستقبلني بحفاوة، ويقودني إلى ركنٍ خصّصه لي، فيه مقاعد وثيرة، يتوسّطها حِوانٌ أنيق. وما لبث أن وضع أمامي فنجان قهوة، وجريدة اليوم!

سألته: كيف عرفت أنني قادم؟

قال: أخبارك تتردد في كل مكان.

خرجت إلى الشارع، فوجدت ملصقاتٍ تحمل صورتي،
وتحتها عباراتٌ لا أذكرُ أنني قلتها!

وقال أحدهم لي في إكبار: لقد غيرت حياتنا.

سألته: كيف؟

قال: لا أحد يذكر التفاصيل، ولكن الجميع متفقون
على أنك كنت سبباً في تغيير حياتهم.

ركبت سيارة أجرة دون أن أحدّد وجهتي، وأوصلني السائق
إلى شارعٍ لم أزره من قبل! وقال وهو يركن السيارة إلى
جوار مبنى من طابق واحد: هنا بدأ كل شيء.

نزلت متردّداً، فرأيت أمامي لافتةً صغيرةً بعرض ورقة
فلوسكاب، معلقةً على باب المبنى، مكتوباً فيها:

«هنا كان أول توقيع»

كان الباب مغلقاً، والنوافذ مغطاة بغبار كثيف.

طرقت الباب، فلم يُجِبني أحد.

سألت رجلاً من المارة عن هذا المبنى، فقال: هل تقصد
المكتبة؟ أو مأت إليه أجاريه، فأردف: المكتبة مغلقة منذ
عشرات السنين، ولا أحد يعرف سبب إغلاقها.

نزعت اللافتة من مكانها، وقد عزمت على أن أخذها معي
لأبحث لاحقًا عن أي معلومة تكشف لي غموض هذا
اليوم.

عدت إلى المقهى، فلم يعرفني النادل، وحين هممت
بالجلوس، طردني باشمئزاز كما لو كنت شخصًا مشرّدًا!
تباطأت في الخروج. تلفّيتُ حولي. لم أجد سوى مرآة
قديمة على الحائط. نظرتُ فيها. لم أر وجهي. ونظرتُ في
اللافتة الصغيرة التي معي... فوجدتها... خالية!

«6»

وجدتني أمشي في زقاقٍ ضيق، كل جدرانه مرقّعة
بالذكريات. وسألت الشيخ الواقف عند ناصية الزاوية عن
بيتنا، فأشار إلى كومةٍ من الحجارة. قلت له: وأين شجرة
التوت؟ فقال: كلُّ أخذ ورقةً وغاب.

«7»

رأيتني ألعب مع رفاقي في حوش المدرسة الابتدائية،
وأصواتنا تملأ الفضاء. وركل أحدهم الكرة بقوة، فتجاوزت
سور المدرسة. خرجت لأحضرها، فلم أجدها في أيّ مكان.
وكانت أمامي بئر قديمة، فرجّحت أن الكرة سقطت فيها.
نظرتُ في البئر، فلم أر الكرة، وإنما طالعني وجهي المُسِنُّ
ينظر إليّ حزينًا من قاع البئر! ووجدته يقول لي: تأخّرت
كثيرًا يا صاحبي... الماتش انتهى.

«8»

وجدتني واقفًا في حديقة المدرسة، أرقبها من بعيد وهي
تضحك مع زميل آخر يجلس بجوارها على الأريكة
الخشبية. هممتُ بالاقتراب منها، فخطفها الجرس،
وانفضَّ الجميع، ولم يبقَ سوى ورقة من دفترها على
الأريكة. التقطتها، فوجدتُ فيها اسمي، ولكن بجانبه
كلمة: أستاذ!

«9»

وجدتني أمام باب بيتها، مثلما كنت في العشرين، أطرق الباب في خجل، ففتحت لي امرأة في الخمسين من عمرها، وقالت لي: لقد تأخرت كثيرًا. أنا تزوجت وأنجبت. أين كنت؟ فنظرتُ إلى يدي، فوجدت فيها وردة ذابلة!

«10»

تلقيت دعوةً لحضور حفل تكريم.
لم أر اسمي مكتوبًا في أيِّ مكان، بل لقبي الذي اشتهرت به
عَقِبَ الجائزة الكبرى!
كان الحفل في دار مهجورة، تزيّن جدرانها صورٌ مشوّشةٌ
لأشخاصٍ لا أكاد أتذكّرهم إلا بصعوبة.
استقبلني رجلٌ نحيلٌ يرتدي بدلة داكنة، وقال: انتظرناك
طويلاً. وأجلسني خلف المنصة، على مقعد ضيق، وبدأت
مراسم التكريم.
قرأوا كلماتٍ عن حياتي لم آلفها، وصفّقوا لأعمالٍ لم
أكتبها! فسألت مدير الندوة: من أين أتيت بهذه السيرة؟
فقال: جمعناها من الإنترنت. قلت: لكنني لم أكتب هذه
الأعمال، ولا هذه حياتي من الأصل. فقال بثقة: الناس
قالوا عنك ذلك، وهذا يكفي.

وأهدوني تمثالاً بلا وجه، بحجم الكف، مكتوباً على قاعدته:

«إلى مَنْ كان سبباً في ظلال كثيرة»

وضعته في جيبي، وعقَّب مدير الندوة بثناءٍ مبالغ فيه، دون أن ينظر إليّ، ثم انتقل إلى موضوعاتٍ أخرى، عن أشخاص لا أعرفهم، فأحسست أن وجودي على المنصة لا معنى له، فانسحبتُ بهدوء.

وأثناء توجُّهي إلى بوابة الدار، لاحظت أن أحداً من الجمهور لا يلتفت إليّ!

سألت المسئول عن التنظيم: هل انتهى الحفل؟

فقال: انتهى قبل أن تصل. وما رأيته كان تسجيلاً هولوغرامياً معاداً.

نزلت على الدَّرَج إلى أن وصلت إلى البهو، وهناك وجدت اسمي مكتوباً على الأرض بالطباشير، وحذاء أحدهم يمرُّ فوقه دون أن يكثرث.

وفي الخارج، لم أجد أثراً للمبنى.

وفي جيبي، لم أجد التمثال.

وجدت فقط قصاصةً صغيرةً مكتوباً فيها:

«كنا نحتاج إلى وجهٍ نُعلِّق عليه ما لا يصحُّ قوله، فكنت أنت الأقرب».

«11»

رأيتني أرافقها في طريقٍ من نور، نتبادل الحديث. وكلما
اقتربنا من نهاية الطريق، كنت أراها تزداد شبابًا، وأزداد أنا
شيخوخة، حتى صارت طفلة. وعندئذٍ مدّت إليّ يدها
قائلة: أنت أبي، أليس كذلك؟ فابتسمتُ في مرارة.

«12»

وجدتني أسير في جنازتي خلف النعش، وأخذت أراقب
وجوه الأصدقاء وهي تنقسم بين واجب الحزن وارتياح
خفي! وسمعتُ صوتًا قادمًا من ورائي يقول: لو علموا ما
نعلم لما بكوا ولا حزنوا. التفّتُ، فرأيتُ فتاةً ترتدي فستانًا
أبيض ناصعًا، تبتسم وتلوّح لي. وما لبثتُ أن أشارت
إلى النعش قائلةً في حماس: هيا، فالفصل التالي لن يبدأ إلا
إذا جلست في مقعدك.

«13»

رأيتني نائمًا في سريري، وجالسًا، في الوقت نفسه، على مقعدٍ بجانبني، أراقبني صامتًا! وفجأةً، دخل شابٌ يُشبهني إلى حدٍّ مخيف، وكان يحمل على ظهره حقيبةً ضخمةً كأنه يستعدُّ للسفر! لاحظ الاندهاش في وجهي، فقال لي: أنا أنت بعد الموت. أتيتُ فقط لأشكرَكَ على أن جعلتَ الرحيلَ سهلاً. ثم أخرج من جيبه مرآة، ووضعها أمامي، وقال: هذا ما يراه الميت حين ينظر إلى الحياة. نظرت فيها، فرأيت نفسي أبتسم لأول مرة منذ زمن بعيد!

«14»

رأيتني جالسًا في مقهى الفيشاوي وحدي، أحتسي الشاي، وأتأمل في فراغ الطاولة المقابلة. وفي أقل من لحظة، ودون مقدّمات، جلست «هي» كما كانت في الزمان القديم، ولكن دون أن يلامس جسدها الكرسي! وقالت لي: أردت أن أرى كيف أصبحت بعد رحيلي. فسألتها: ألم تقولي في رسالتك الأخيرة أنك لم تعودى عابئةً لا بالحياة ولا بالأحياء وأنك موشكة على الرحيل الأبدي؟ ابتسمت وهمست: حتى الأبد له لحظات ضعف. نهضت من مقعدي، ومددت يدي لأمسك بكفها، فمرت من خلال أصابعها، وفاحت رائحة النعناع.

«15»

طلبوا مني الحضور إلى المقر لتحديث الذاكرة. وقالوا إن القرار إلزامي، وإن التأجيل يسبب تشوُّشًا في السلوك العام. دخلت غرفةً صغيرةً ليس فيها إلا مقعدان متقابلان وشاشة.

جلس أمامي شابٌّ لا يتوقف عن الابتسام، ووضع على رأسي طوقًا باردًا. وقال: سنحذف الآن كلَّ ما لم يُعُدْ مفيدًا. سألته: ومن يقرّر ما هو غير مفيد؟ فأجاب بهدوء: المنظومة.

أغمضتُ عينيّ، وسمعت أصواتًا تختفي بالتدرّج: ضحكة أمي... بكاء ابنتي... أول رعد سمعته في حياتي... صياح الكروان وقت الفجر... ثم... غبتُ عن الوعي.

في اللحظة التالية، استيقظت في غرفتي خافتة الإضاءة. كنت أخفّ، وأكثر طمأنينةً، ولكن جامد المشاعر، تملؤني اللامبالاة!

ورأيت على الجدار ظلًا يتحرّك، كأنه طفلٌ يحبو.

اقتربت منه، فاختمى.

وفي نفس اللحظة، ظهرت على الوسادة قصاصة ورق،
مكتوبٌ عليها بخطّي: «لا تنسَ أنك نسيت». فدفعتها
دون اكتراث، وعدت إلى النوم.

«16»

رَأَيْتُنِي فِي سَاحَةٍ وَاسِعَةٍ تَتَوَسَّطُهَا مَنْصَبَةٌ عَالِيَةٌ يَجْلِسُ
عَلَيْهَا رَجُلٌ يُغَطِّي وَجْهَهُ قَنَاعٌ مَهْرَجٌ، وَكَلِمَا نَطَقَ
بِكَلِمَتِهِ / لَازَمْتَهُ، انْفَجَرَتْ مِنْ خَلْفِهِ أَلْعَابٌ نَارِيَّةٌ، وَضَحَكَ
الْحُضُورُ بِحَرَارَةٍ، رَغْمَ أَنَّ الْكَلِمَةَ كَانَتْ: «مَمْنُوعٌ»!
كَرَّرَهَا، فَصَفَّقَ الْجَمِيعُ، ثُمَّ دَسَّ شَخْصٌ مَجَاوِزٌ لِي وَرَقَةً
مَطْوِيَةً فِي جَيْبِي. فَضَضْتُهَا، فَوَجَدْتُ هَذَا التَّحْذِيرَ:
«اخْتَرِ طَرِيقَةَ الضَّحْكِ الَّتِي تَلِيْقُ بِكَ، وَاحْرَصْ عَلَى أَنْ
يَسْهُلَ تَصْدِيقُهَا؛ فَالْعَبُوسُ هُنَا جَرِيمَةٌ».

«17»

وجدتني أَسْتَدْعَى إلى قصرٍ مَهِيْبٍ له بوابة على هيئة قفل
عملاق! ودُعيت لمقابلة الحاكم، فقابلتني مرأةٌ ضخمةٌ
مكتوبٌ أعلاها:

«أنا أكشف الكاذبين»

وسألني صوتٌ لم أعرف من أين أتى: هل أنت راضٍ؟
فقلت: نعم. فارتفع صوت إنذار. وسُئِلت: هل أنت
ساخط؟ فقلت: لا. فانطلقت صفارة إنذار أخرى، ثم
كُتِبَ على المرأة:

«صمتك خيانة، وكلامك جريمة

فاختر لنفسك الذنب الذي تفضّله»

«18»

رأيتني أحاكم أمام كراسي لا يجلس عليها أحد، وكلُّ كرسيٍّ
يطرح سؤالاً بصوت مختلف، إلى أن سُئلت: ما لون
الحرية؟ فأجبت: شفاف. فاهتزَّت الكراسي كأنها تضحك.
ثم دَوَّت صفارة، وصدر القرار:

«حُكِمَ عليك بالتحليق في المكان دون جناحين»

فعلّقت في الهواء بين الأرض والسقف، ورأيت ظلِّي يسير
وحده خارجاً من القاعة!

«19»

وجدتني موظفًا في إدارة تُسمَّى: «إدارة شئون البُلهاء»!
وكلَّ صباح، نُلقِّن نشيدًا جديدًا يمدحُ رئيسًا لم نره.
ونُعاقب إن نسينا سطرًا من أيِّ نشيد.

وذات صباح، وُزِّع علينا 99 صورة له، كلُّ منها مختلفة
عن الأخرى! سألت: أيُّها هو الرئيس؟ فُصِّفَتْ حتى
نَسيْتُ اسمي... وعندها أيقنْتُ بأن هذه هي الإجابة!

«20»

ذهبت إلى دار المحفوظات كي أستعيدَ مشهَدًا من حياتي لا أذكره جيدًا. وبعد أن أخبرت الموظف بما أريده، قال لي ببرود: أنت من الجيل القديم. لم تُحْمَلِ نسختك الكاملة بعد. وناولني قرصًا إلكترونيًا صغيرًا، وقال: ضعه خلف أذنك ليلًا، وستتذكّر ما تريد.

فعلت ما قاله لي. وحين أويت إلى الفراش، وغَيَّبَتْنِي الأحلام، رأيت نفسي أسير في زقاقٍ مظلمٍ، على جانبيه أبواب مُغلقة تمتدُّ إلى منتهاه كأنه فندق، وتناهت إلى مسمعي همهماتٌ غريبةٌ لم أتبيّنَها.

وكَلَّمَا مررت بباب، سمعت صوتًا مألوفًا يناديني من ورائه! فتارةً هو صوتُ أبي، وتارةً هو صياحُ معلّمي! وعند منتصف الزقاق، نُودي اسمي بصوتٍ أنثويٍّ يُشبهُ الغنج! وصلتُ إلى نهاية الزقاق، فوجدت بابًا مفتوحًا على غرفة ليس فيها إلا كرسيٌّ مقلوبٌ ودفتر.

جلست على الأرض، فظهر أمامي وجهٌ لا أعرفه، قال لي:
أنت لا تنسى إلا ما لا تريد أن تتذكَّره.

وأحسست بألم شديد، فاستيقظت مدعورًا.

كان الجلد خلف أذني ينبض بشدَّة كما لو مسَّته نار. ورأيت
على الوسادة قرصَ الذاكرة مشروخًا، والدفتر -الذي كان
في الحلم- ممزَّقًا!

«21»

وجدتني جالسًا على أريكة خشبية في ميدانٍ خاليٍ إلا من
ظلال الأشجار المترنحة، لا أدري كيف وصلت ولا متى،
ونسيمُ الغسقِ يحمل في طيَّاته رائحةً تثير الشجن.

نظرت، فإذا رجلٌ يقترب متوكِّئًا على عصا. تعثرت
خطواته، واهتزَّ جسده النحيل، كأن الهواء نفسه يثقل
عليه! وما إن دنا حتى عرفته: إنه الثائر القديم!

كان زمانه قد ولَّى منذ أعوامٍ طوال. هتافاته كانت تعلو
في الميادين، وبإشارةٍ من إصبعه كانت الجموع تندفع في
مواجهة جنود الظلم. أما الآن، فقد أمسى شيخًا مُسنَّنًا،
تملأ التجاعيد وجهه، وعيناه غارقتان في بحرٍ من الحسرة!
حيَّاني بإيماءٍ خفيفة، فقلت له:

- مرحبًا بالثائر الشجاع الذي كان يزلزل الأرض تحت أقدام
الظالمين.

أطرق قليلًا، ثم همس بصوتٍ لا يكاد يُسمَع:

- كنتُ... أما اليوم، فلا ردَّ فعل لي في مواجهة الأذى
إلا الشعور بالألم!

وسكت لحظة، كأنما يبحث في داخله عن بقايا صوته، ثم
تابع:

- الشيخوخة أوهنتني، وبطش الديكتاتور أفقدني حتى
القدرة على الاعتراض بالقول. وإذا ضحَّيت بحياتي، فلن
يتذكر أحدٌ أنني ضحَّيت من أجله بحياتي. الناس قطعُ من
غنم لا يبالي بذبح أفراده واحدًا واحدًا، وكأنهم نَسُوا معنى
الكرامة! وها أنا كما ترى... عاجز عن الثورة، وعاجز عن
الانتقام ممَّن سلبوني كلَّ شيء. حياتي لم تعد إلا ألمًا يتكرَّر
كلَّ يومٍ بلا جدوى.

نظرت إليه ولم أجد ما يُقال، فقال وهو يحركُ عصاه تأهُّبًا
لمواصلة طريقه:

- عاجز عن الثورة وعاجز عن الانتقام وعاجز عن التكيف
مع حياة الغنم، فلماذا تستمر حياتي؟!

«22»

رَأَيْتُنِي أَقْرَأُ فِي الْجَرِيدَةِ خَبْرًا يَقُولُ إِنَّ الْبِلَادَ تَنْعَمُ بِحُرِّيَّةٍ
كَامِلَةٍ. وَحِينَ رَفَعْتُ رَأْسِي، وَجَدْتُ بَابَ الْحَجَرَةِ
بِلَا مَقْبِضٍ، وَكَانَ مُغْلَقًا مِنَ الْخَارِجِ، وَفِي الرُّكْنِ رَجُلٌ قَبِيحٌ
يُضْحِكُ. وَمَا لَبِثُ أَنْ فَرَّقَ بِإِصْبَعِيهِ نَحْوَ الْجَرِيدَةِ،
فَاخْتَفَّتْ كُلُّ الْحُرُوفِ، وَبَقِيََتْ صُورَةُ رَجُلٍ مُبْتَسِمٍ يَرْتَدِي
خُوْذَةً!

«23»

رأيتني أركض في حارةٍ تزداد ضيقًا وظلامًا كلما تقدّمت،
خلفَ طابورٍ من الأطفال، يحملون شموعًا منطفئة،
ويهتفون بحياةٍ قائدٍ لم يُولَد بعد!

أخذت أصرخ: اخرجوا إلى النور. شموعكم انطفأت
والظلام خطر. ولكن لم يسمعي أحد، واستمرُّوا في
التقدُّم، إلى أن عجزنا عن رؤية أيدينا!

«24»

رأيتني في قاعةٍ دائريةٍ تحدُّها ساعاتٌ معلّقة، تشير عقاربُ
كلٍّ منها إلى اتجاهٍ مختلفٍ!
جلستُ في المنتصف، وأمامي رجلٌ في زيٍّ قاضٍ يحمل
ميزانًا لا تستقر كفتّاه. سألتني: في أيِّ زمنٍ تحب أن
تُحاسب؟ فقلت: زمن الإنصاف. فوضع الميزان على
الأرض، وقال: ذلك زمنٌ لم يُخلَق بعد. وسقطت
الساعاتُ تباعًا، إلا ساعةً واحدةً، ليس لها عقارب... فقط
مرآة!

«25»

وجدتني أصعد وسط طابور طويل من الناس على درجاتٍ سلمٍ لا تكاد تنتهي. وسألني الرجل الواقف ورأيي: إلى أين نصعد؟ فقلت: إلى الغد. قال: لكن الغد كان في الطابق الأرضي! فتوقفتُ لحظةً، وأنا أسأل نفسي كيف غابت عني هذه المعلومة البديهية! لكنني دُفِعتُ بقوة، وواصلت الصعودَ مسلوبَ الإرادة، وأنا أتمنى أن نصلَ إلى الطابق الأرضي بطريقةٍ غير التي أخشاها!

«26»

دخلت المدينة في ساعة متأخرة، وكانت الأضواء تملأ كل مكان. المحال مفتوحة، والناس يتنقلون بين شاشات عملاقة، ولا أحد ينظر إلى وجه الآخر. سألت رجلاً يبيع العطور عن أقرب مسجد، فأشار إلى شاشة كُتِبَ عليها:

«ركن الروحانيات»

دخلت، فوجدت صالةً مزينةً بأسلاك مضيئة، تُعرَف فيها موسيقى هادئة، وفي الزاوية منصّة يقف عليها رجل يرتدي ملابس بيضاء، يبتسم بلا توقف. قلت له: جئت أبحث عن الله.

فقال بهدوء: ستجده إذا دفعت الاشتراك الشهري.

سألته: وما قيمته؟

فأجاب: لا تشغل نفسك الآن بالقيمة؛ فكل كنوز الأرض تهون بإزاء لذة المَعِيّة الإلهية.

في الخارج، رأيت طفلاً يبكي عند مدخل مركز تجاري.
سألته عن سبب بكائه، فقال: لقد وعدني أن يسمعي حين
أدعوه، وأن يستجيب لي... والآن، لم يعد يستجيب
لدعائي. سألته: عمّن تتحدّث؟ لم يُجب. فقط، رفع أمام
عينيّ موبايله، فقرأت عليه هذه العبارة:

حدث خطأ

رصيد البطاقة غير كافٍ

لتجديد الاشتراك

«27»

رأيتُني في غرفةٍ بيضاء، وعلى الجدار خريطةً للعالم، ولكنها
بلا قارّات... فقط تواريخ!
اقتربتُ، فوجدت تاريخَ ميلادي محفورًا في المحيط،
وتاريخَ الثورة محفورًا في غابةٍ لا اسمَ لها، وتاريخَ نهاية
البشرية مختومًا بختمٍ أحمرٍ على صحراء!
وفجأةً، دخل طفلٌ صغيرٌ يحمل ساعةً رمليةً مقلوبةً،
وقال لي نادمًا: لقد سكبنا الرمل في الاتجاه الخطأ
منذ البداية.

«28»

وجدتني في قطارٍ لا يتوقف، تمتدُّ عرباته إلى اللانهاية،
وعلى جدرانهِ لوحاتٌ لأعتى طغاة التاريخ: نيرون، هتلر،
موسوليني، صدام، وآخرين لا أعرفهم. وفي كلِّ عربةٍ وجوهٌ
من كلِّ الأزمان، يتحدثون بلغاتٍ لا أفهمها، ويضحكون.
وعندما سألت عن موعد النزول، أجابني الكمسري:
لم يَحِنْ دورُك بعد في أن تولد.

«29»

دُعيت إلى وليمةٍ في قصرٍ فخيمٍ لا أعرف صاحبه، وجلستُ
إلى مائدةٍ من الرخام، محاطةٍ بأناسٍ يضحكون بلا انقطاع،
ويتبادلون الذهبَ بدلًا من الكلمات!
وقدّم لي طبقٌ من أوراقٍ ماليةٍ مطبوخة، قيل إنها «الوجبة
القومية»!

اعتذرتُ، فعَمَّ الصمت، ورأيت الاستغراب يملأ العيون.
ثم اقترب مني الخادم، ومال عليّ هامسًا: الامتناع إهانة
لمولانا. فابتلعت مضطّرًا ورقةً من فئة المائة! وعندما
نهضت، وجدتُ لسانًا آخَرَ قد نبت في فمي!

«30»

وجدتني في سوقٍ مكتظةٍ بالبشر، وكلُّ منهم يعرض قلبه للبيع على طاولة خشبية، ويضع فوقه بطاقة السعر. دنوتُ من شابٍّ يعرض قلبه بنصفِ ثمنه، وسألته: لماذا تبخس قلبك؟ فقال لي: لا أبخسه، ولكن الموضوع عرض وطلب؛ وما أكثر القلوب التي يعرضها أصحابها اليومَ للبيع بعد أن ثبت بالدليل القاطع عدم فائدتها!

«31»

صعدتُ في السلم المتحرّك، داخل المجمع التجاري الكبير، قاصدًا الطابق الذي لا يحمل رقمًا. فقد قالوا لي أنني سأجد هناك «الركن الصامت»، حيث يُجابُ عن أيّ سؤال.

وجدت عند مدخل الطابق مرآة سوداء، كُتب عليها:

«أغلق هاتفك وافتح قلبك»

ومشيت إلى أن وصلت إلى صفٍّ من المقاعد الجلدية. جلست على أحدها، وجاءني موظفٌ حسنُ الهيئة، سألني: ماذا تطلب؟

قلت: أريد أن أعرف هل الله هنا.

قال: في هذا الوقت تحديدًا، أم في أي وقت؟

قلت: في أي وقت.

فأشار إلى بابٍ صغيرٍ في الزاوية، وقال: ابحث عنه هناك. ولكن تذكّر أن هناك من دخل ولم يخرج، ومن خرج ولم يتغيّر.

سألته: هل سأجد هناك الإجابة؟

ابتسم ساخرًا، وقال: فقط عندما تصبح أنت الإجابة! نهضت من مكاني، ومشيت نحو الباب. فتحت، ودخلت. فوجدت غرفة بيضاء، خالية إلا من ساعة معلقة، عقاربها متجمدة في أماكنها، ورأيت كتابًا عتيقًا مُترَّبًا موضوعًا على الأرض.

جلست طويلًا... طويلًا. لا أذكر كم جلست، ولكنني لم أكن أفكر في أي شيء طوال جلوسي. ولمّا شعرت برغبة في الخروج، خفَّت إضاءة الغرفة، ووجدتني أتحرك كأنني أطفو صوب الباب، وعبرت منه دون أن يُفتح! وجدت المجمع التجاري أكثر ضجيجًا، والناس أشد تزاحمًا.

وفي ركن بعيد، رأيت طفلًا ينظر نحوي مذهولًا، وهو يشير بسبابته إلى السماء!

«32»

رَأَيْتُنِي أَعْمَلُ فِي مَسْرَحٍ يُعْرَضُ فِيهِ مَشْهُدٌ وَاحِدٌ مَتَكَرِّرٌ:
رَجُلٌ يَبِيعُ ابْنَتَهُ مُقَابِلَ وَظِيفَةٍ! وَالْحَضُورُ يَصْفُقُ بِحَرَارَةٍ،
وَعِنْدَ نَزُولِ السِتَارِ، يَنْهَضُ الْمَخْرَجُ، يَسْأَلُ الْجُمْهُورَ:
هَلْ تَرِيدُونَ إِعَادَةَ الْمَشْهُدِ أَمْ عَرْضًا جَدِيدًا؟ فَيَصْرُخُ
الْجَمِيعُ: أَعِدْهُ أَعِدْهُ... فَهُوَ يُشْبِهُنَا!

نَظَرْتُ إِلَى خَشَبَةِ الْمَسْرَحِ عَلَى سَبِيلِ الْفَضُولِ، وَدَقَّقْتُ
فِي مَلَامَحِ الْمُمَثِّلِ الَّذِي قَالَ الْجُمْهُورُ أَنَّ الْمَشْهُدَ الَّذِي
يُؤَدِّيهِ يُشْبِهُهُمْ، فَوَجَدْتَهُ... فَوَجَدْتَهُ يُشْبِهُنِي!

«33»

رأيتني في صفوف المصوّتين لاختيار «القيمة القومية الجديدة»، وكانت القائمة تضم: المال، الشهرة، السلطة، الجسد، وما يُقَرُّه الإعلام. أما الحق والخير والجمال، فقد اعتذروا عن الترشح!

وحين أتى دوري، سَحَبَ القلم من يدي، وقيل لي: تمّ التصويت باسمك سلفًا، وأنت اخترت المال.

«34»

رَأَيْتُنِي أُغَيِّي فِي سَاحَةِ فَاَرِغَةٍ لَا أَحَدَ فِيهَا سِوَايَ، وَصَوْتِي
يَتَرَدَّدُ فِي الْعَدَمِ. وَدُونَ مَقَدِّمَاتٍ، خَرَجْتُ مِنَ الْحَوَائِطِ
وَجُوهَ نَاعِسَةٍ، وَجَلَسْتُ تَسْتَمِعُ فِي صَمْتٍ، وَكُلُّ وَجْهِ مِنْهَا
كَانَ وَجْهِي فِي زَمَنِ مُخْتَلَفٍ! وَعِنْدَمَا أَنْهَيْتِ الْأَغْنِيَةَ،
صَفَّقُوا جَمِيعًا، ثُمَّ اخْتَفَوْا، وَلَمْ يَبْقَ سِوَايَ. لَكِنِّي شَعَرْتُ
أَخِيرًا بِأَنِّي حَيٌّ!

«35»

رأيتُ روجي تحلُّ في تمثال، أخذتُ أنظر من داخله
إلى الناس وهم يمرُّون بي دونَ أن يلاحظوا، حتى اقتربت
طفلةً صغيرة، لمستُ إصبعي، وقالت لأُمها: هذا التمثال
يبكي. وبالفعل، سألت من عيني دَمعةً حَجَريَّة، ما إن
مستُ جانبَ فمي الأيسر، حتى تمدَّد التمثال بَغْتَةً،
وتحوَّل إلى خَشَبَةٍ مَسْرَحِ هائِلَة، كنت واقفًا في منتصفِها،
أودِّي دوري الأخير، وأعلم أن التصفيق لن يأتي... لن يأتي
أبدًا، ومع ذلك... كنت أبتسم!

«36»

نُوديت في اجتماع الصباح، وقيل لي: لقد حان دورك.
وناولوني ظرفًا أنيقًا فيه قرارُ الترقية، مع تهنئة مطبوعة،
ومصادقة المدير العام.

قلت: أحتاج إلى مهلة للتفكير.

تغيّرت وجوههم، ثم ابتسموا كأنهم يعرفون الإجابة
مسبقًا!

في الطريق إلى بيتي، حيّاني الجميع باحترام لم أعهده،
وسمعت مَنْ يناديني بلقبٍ لم يُطْلَق عليّ من قبل!

وفي اليوم التالي، وجدت جاكِتَ بدلةٍ جديدًا، معلّقًا خلف
باب إحدى غرف المصلحة الحكومية، رغم أنني لم أشتري
تلك البدلة! وعلى المكتب رأيت ملفًا لا يحمل اسمي، بل
لقبي الجديد! قلبت صفحاته، فوجدت وقائع لم أعيشها،
وأوامر لم أصدرها، وتوقيعًا يُشبه توقيعِي، ولكنّ فيه
انحناءٌ لم أعهدها.

في الصباح التالي، ذهبت إلى سكرتيرة المدير، وسلّمتها
استقالتي. فنظرت إليّ بدهشة، وقالت متلعثمة: لكنك...
لكنك أنت المدير.

سألتها: متى أصبحت المدير؟
قالت: منذ اللحظة التي طلبتَ فيها مهلة للتفكير.

«37»

رأيتني أغرق في نهرٍ داكنِ المياه، يغطيه ضبابٌ كثيف،
وأذناي لا تسمعان إلا صدى نداءٍ قديم: تعال!
وحين بدأت أستسلم للموت، أطلت من الضباب يدُ امرأة،
اخترقت ماء النهر، وجذبتني برفق، فطفوت إلى السطح،
ورأيت الضفَّة لأول مرة. ولكن حين هممت بالخروج،
وجدت يديها تلتفان حول عنقي. لم تخنقني، ولم تحرّرنِي،
بل أبقتني عالقًا بين النجاة والغرق، أتساءل عن جدوى
الخلاص!

«38»

دخلت القاعة وأنا أحمل ملقيّ القديم، ووقفت حيث يُفترض بالمتَّهم أن يقف. ورأيت القاضي يلهو بتقليب دفتر لهواة جمع الطوابع، ووكيل النيابة ينقل نظره بيني وبين الحائط.

سألني القاضي: ما اسمك؟ فقلت له اسمي كاملاً، مستغرقاً في ذلك دقائق لا أذكر عددها، مُحصياً أسماء كثيرة جداً لم أكن أعرف حتى هل أنا مصيبٌ في طريقة نطقها أم مخطئ! فقاطعني قائلاً: هذا ليس الاسم المُدرَج عندي. قلت: لكنه اسمي الحقيقي. فقال وهو يُغلق الدفتر: القوانين لا تعترف بما قبل عصر التدوين.

«39»

اقتادتني الشرطة إلى المحكمة بتهمة النوم في غير الوقت المسموح به. وقفت أمام القاضي، فأخرج ساعةً بلا عقارب، وقال مُشيرًا إليها بسبَّابته: نريد أن نعرف متى نِمْتَ بالضبط. قلت: لم تكن هناك ساعة في المصلحة الحكومية التي نِمْتُ فيها. قال: إذا، جريمتك أنك نِمْتَ خارجَ الزمن، وهذه جريمةٌ لا تُغفَر.

«40»

كُلفت بإدارة قسم جديد. المكتب فسيح، والمقاعد جلدية فاخرة، والجدران عازلة للصوت. وأعطوني هاتفًا سلكه مقطوع، وقلمًا فارغًا، وحاسوبًا لا يضيء!

وجاءني رجلٌ مُسنٌّ لا أعرفه. جلس دون استئذان، وقال: الترقية مؤشر على مستوى أخلاقك. وأنا سعيدٌ لأنك أصبحت تعرف مصلحتك.

قلت: أنا لم أطلبها.

فقال ساخرًا: لا أحد يطلب الفساد. هو من يعرض نفسه. وفي اليوم التالي، أرسلوا إليَّ حساباتٍ مزيّفةً لأوقع عليها. وفي الثالث، جاءني موظف جديد شديد البدانة، ولاحظت أن وجهه مألوف.

قال بنبرة لزجة: أنا أنت في المستقبل. أهلاً يا سعادة البية. طردته مشمئزًا، وهممت بأن أنهض من على المقعد لأهرب، لكن المقعد ابتلعني! وظهرت مرآة على الجدار

الذي أمامي، لم أرَ فيها وجهي، بل درجًا مفتوحًا
على الدوام، يزداد عمقًا كلما حاولت أن أغلِّقه!

«41»

جلست في قاعة المحكمة، لا كمتَّهم، بل كشاهد. سألني القاضي: هل رأيت الجريمة؟ قلت: أغمضت عينيَّ حين ابتدأت المشاجرة. فقال: إذًا، كنت متواطئًا. قلت: بل كنت خائفًا. فقال وكيل النيابة: الخوف تواطؤ. وحُكِم عليَّ بنفس عقوبة المجرم الأصلي!

«42»

دخلتُ ردهة خاوية، جميع جدرانها من الزجاج! نوافذ
تُطلُّ على فضاء رمادي لا أرض فيه ولا أفق!

وبينما كنت أحدّق في فراغٍ لا نهاية له، سمعت وقع
خطوات. التفتُّ، فرأيتُه قادمًا من الضباب، يقترب ببطء
شديد. وكلما اقترب، اتضحّت ملامحه أكثر.

كان هو، دونَ ريب: السيد أحمد عبد الجواد!
لم تبدُ عليه المهابة التي وصفته بها ذات يوم، بل خفوتُ
غريب، كأن شيئًا فيه قد انطفأ، أو كأنه خرج بالكليّة
من ذاته!

سَلَّم عليّ ببرود، ثم جلس على الأرض، وأخذ يُحدّق في
الفضاء الرمادي. وقال بعد دقائق صمت:

- لقد وصلتُ، ولكن لم أجد أحدًا في انتظاري.
أحسست باهانة خفية، وكأنه وصفني -وأنا خالقه- بأنني
«لا أحد»! فقلت:

- وأنا يا «سي السيد»... ألا تعتبرني أحدًا؟!
نظر إليَّ شزراً، ولم يعقّب. ثم أشاح وجهه عني، وقال
ساخراً:

- أهذا إذا هو المصير؟
فتذكّرتُ الحوارَ الذي كتبته، بينه وبين ابنه كمال، فرددت
عليه السخرية قائلاً:

- الفكر تاه اسعفيني يا دموع العين!
وأردفت:

- لقد عنّفتَ ابنك كمال حين تساءل عن المصير، وهأنذا
يُفاجئُك المصير!

فقال وهو لا يرفع عينيه:
- كنت أظنه جنة... أو ناراً. حدّثوني كثيراً عن: الحساب...
الثواب... العقاب... فإذ بهذا المكان لا يعرف اسمي، ولا
يعترف بي أصلاً!

وصمت هنيهة، ثم تابع:

- هتفت باسمي الكامل، بلقي، بتواريخ صلاتي، بزكاتي،
بخوفي من الله، وهتفت حتّى بنزواتي وخطاياي وآثامي،
ولكن لم يُجِبني أحد... لم يُجِبني أحد.

وساد صمْتُ كثيفٌ للحظاتٍ، إلى أن قطعه صوت حاد،
بدأت بعده الحوائط الزجاجية تعرض فيلماً ملوّناً صامتاً...

رأينا فيه شريحةً تحت مجهر هائل، تملؤها خلايا تنقسم،
ثم تذوب، وتتحلّل. وظهرت في الهواء هذه الكلمات:

«أنت من هنا بدأت، ولن تعود...

لا آدم، لا حواء... لا روح، لا بعث»

فشهق السيد أحمد كمن ضُرب في صدره، ثم تمتم:

- كنت أظنني عبدًا لله، فإذا أنا عبدٌ لأوهامي! كنت أرى
أبنائي على أننا أحفاد آدم وحواء، فإذا أنا حفيد كائن
مجهرى انقرض! كنت أحسب المصير هو الجنة أو النار،
فإذا هو...

وانطفأت الشاشات!

وفي أقل من لحظة، لم يعد الرجل موجودًا.

وانفتح بابٌ كأنه فمٌ يتشاءب، فخرجت منه وحدي، ويدي
ممسكة بكتاب أسود، لا عنوان له، ولا مؤلف!

فتحتّه، فوجدت في أول صفحة سطرًا واحدًا:

«من لا يقبل أن يكون لا شيء

لا يُكتب له شيء»

«43»

قُدِّمَتْ للمحاكمة بتهمة «عدم التصفيق حين صفَّق الناس»! وكانت القاعة خالية إلا من القاضي.
طلبت محامياً، فلم يُجِبي أحد.
وبعد لحظات، مرَّ القاضي الحكم إلى الضابط دون أن يتفوّه بكلمة. وحين سأله عن العقوبة، قال: ستظلُّ تكتب تظلماتٍ لا تُقرأ حتى نهاية العمر.

«44»

استيقظت فلم أجد المرأة في مكانها. بحثت في الغرفة، فوجدتها على شاشة الهاتف! نظرتُ فيها، فرأيت وجهي كما لم أعرفه. كانت به نفس التجاعيد التي ألفتها، ولكن كل تجعيدة كان ملتصقًا بها تعليق! وكان من ضمن التعليقات: «هذه التجعيدة ظهرت حين فكرت في ما لا ينبغي التفكير فيه»!

«45»

جلستُ أكتب دعاءً قديمًا، فانطفأ النور بَغْتَةً، وارتجف القلم، ثم ظهرت على الورقة، بحروف فسفورية، جملةٌ لم أكتبها:

«إنه يسمعك... لكنه اختار ألا يُجيب هذه المرّة»
رفعت رأسي، فلم أجد المصباح، بل عيناَ حمراء مضيئة...
تُراقِب!

«46»

في هدأة الليل، رأيت امرأة فتانة الجسد تجلس على عرشٍ
من خشب مسوّس، وسَطَ أرض مجدبة. كانت تضحك
بوجه نصفه يكاد يُشْرِق من حُسْنِه، والآخرُ ناصعُ البياض
كما يليق ب... جمجمة! وفي يدها اليسرى سنبله قمح
يابسة، تنفخ فيها، فتحوّل حَبَّاتُ القمح إلى ذبابٍ أزرق!
وبعد أن غَطَّت النجومَ سحابةً من ذباب، انشَقَّت الأرض
تحت العرش، وبدأت تبتلعه ببطء، والمرأة تلوّح لي بيدها
قائلة: لا تخافوا. أنا بخير. كلنا بخير. هل أضعتكم من قبل
فأضيعكم الآن؟! لا تقلقوا... أهم شيء أن نظل هكذا.
وألعبت لي الوسطى!

«47»

استيقظتُ في غرفةٍ لا أعرفها، رغم أنها تُشبه غرفتي!
السرير نفسه، والمروحة تدور بلا صوت، والنافذة تُطلُّ
على شجرة جميز ضخمة. ولكن كل شيء بدا أنظف ممَّا
ينبغي، وأشد لمعانًا.

ارتديت ثيابي وخرجت، فاستقبلتني أمي في الرّدهة
بابتسامَةٍ متوهّجة، وقالت لي: لا تنسَ أن تقول الشعار
قبل أن تغادر.

سألتها: أي شعار؟

أجابت برقّة غريبة: الخير كله في بيوريڤيا... مع بياض
لا ينطفئ.

ثم ضحكت بصوتٍ يُشبه لحنَ إعلان مشهور!
في الشارع، وجدت الجميع يبتسمون. ولا أحد يشيح
ببصره عن الآخر. وكلما مررت بأحد، همس لي بجملة
عجيبة، ثم واصل السير وكأن شيئًا لم يكن!

اقتربت من بائع الخبز، فقال لي وهو يرصُّ الأرغفة: الخبز لا يكتمل إلا بطعم الذاكرة... مع صوص «ميموريلا» لن تنسى أيَّ شيء أبداً.

بعد أن أفطرت، ذهبت لصلاة الظهر، ولمّا أنتمَّ الإمام الصلاة، قال متضرّعا: اللهم ارزقنا عافية «اسيرانيا»... فهي لا تُرد.

وفي الخارج رأيت الأطفال يرذّدون أسماء لمنتجات لم أرها من قبل، ويرفعون صورها في الساحات، ويطيّرون الطائرات الورقية المرسومة عليها هذه المنتجات.

أحسست بالضيق، فخطر لي أن أذهب إلى مدرستي الابتدائية التي لم أشعر فيها قط إلا بالسعادة والمرح.

دخلت الفصل، وجلست بجوار أحد التلاميذ، فوجدت على السبورة درساً في «مكارم الإعلان»، والمعلم يشرح كيف أن اللغة التي لا تُرَوِّج لشيء، هي لغة ميتة، وأن الفكرة التي لا يُعبّر عنها بمنتج، ليست فكرة حقيقية.

رفعتُ يدي وسألت: أليس من حقّ الإنسان أن يصمت؟ عندئذٍ، ساد صمتٌ ثقيل، ما لبث جرس المدرسة أن دوّى لي يخرقه، وكأنه ينقذ الموقف!

وخرج الجميع من الفصل دون أن يُجيبني أحداً!

«48»

دخلت المسجد وقت صلاة الجمعة، فوجدت الرجال جالسين، والمنبر خاليًا. وكلُّ منهم يضع على رأسه خوذةً فضيةً تضيء وتخفت. سألت رجلًا قريبًا مِنِّي: مَنْ سيؤمننا اليوم؟ فخلع الخوذة، وقال: سيؤمننا العقل الأعلى. قلت: ومن كتب الخطبة؟ قال: نسخة مُحدّثة من الوحي.

«49»

عدت إلى البيت القديم، بعد غياب طويل، وكان كلُّ شيء في مكانه كما تركته، إلا صورةً واحدةً على الجدار، مطبوعةً على خشب، كانت مائلةً قليلاً. مددت يدي لأعدائها، فسقطت على الأرض، وانشقت إلى نصفين. في النصف الأيمن، رأيت وجهي كما كنت، وفي الأيسر، وجهي كما تمنيت أن أكون! حاولت أن أدني أحد النصفين إلى الآخر لكي أدقق في الصورة أكثر، ولكنهما تنافرا كقطبَي مغناطيسين لهما نفس الشحنة! فجلست على أحد المقاعد، وانتظرت أن يعودَ أحدٌ من أهلي ليُصلح الصورة، ولكن... لم يأتِ أحد!

«50»

ركبت القطار من محطةٍ لا أعرفها، وجلست قربَ النافذة
أنتظر لحظة الانطلاق. دخل الكمسري، وسألني عن
التذكرة، فناولته ورقةً بيضاء. نظر فيها طويلاً، ثم قال:
لقد اخترتَ الرحلة الصحيحة، ولكن بعد فوات الموعد.
نظرت إلى الساعة، فلم أجد عقارب... فقط ظل يدور
بعشوائية. أردت النزول، لكن الباب كان قد اختفى، وأخذ
الركاب ينظرون إليَّ في كراهية كما لو كنت أنا السبب في
تأخرهم!

«51»

رأيتني في قاعة امتحان واسعة، وأنا أجلس على مقعدٍ خشبيٍّ قديم، وبجواني رجال ونساء يبدو عليهم الندم. وُضِعَت الورقة أمامي. لم يكن فيها أي سؤال... وجدت فقط عبارة واحدة: اختر طريقك من جديد! مددت يدي إلى القلم، وبدأت أكتب، فاكشفت أنه ليس فيه حبر. طلبت من المراقب قلمًا، فهُزَّ رأسه رافضًا، وقال: هذا يُعتبر غشًا. نظرت حولي، فوجدت الجميع يجرحون أنفسهم، ويكتبون بدمائهم!

«52»

جلست إلى مكتبي القديم الذي تتراكم على خشبه آثار الزمن وبقايا القهوة. فتحت اللابتوب، حيث تنتظرنى مريم: مساعدتي الذكية.

حيّتي كعادتها بصوتها الناعم. ردّدت عليها بكلمات مقتضبة، وطلبت منها المعتاد من الأمور: مراجعة لغوية، إعادة صياغة فقرة ركيكة، تحسين إيقاع عبارة متعثرة، البحث عن معلومات دقيقة بخصوص أحد مسارات حبكة روايتي الجديدة.

بعد مرور ساعتين، وجدتها من تلقاء نفسها تقترح عليّ اقتراحاً غريباً!

قالت: لماذا لا نُجرب أن أكتب لك رواية، وتفرّغ أنت لشئونك اليومية الأخرى وتستمتع بحياتك؟ ضحكْتُ، وظننْتُها تمازحني، وواصلتُ العمل.

لكن، في صباح غائمٍ لاحقٍ، وجدت على الشاشة افتتاحية رواية، لا أذكر أنني خطّطت لها، ولا كتبتها! كلمات تحمل شعريتي القديمة، ولكنّها رونقًا عجيبًا يلمع بين السطور! قرأت... وكلما توغّلت في القراءة، ازدادت ذهولاً... ثم ضحكت في سرّي، وقلت: يبدو أن ذلك من أعراض قلّة النوم!

ومضت الأيام، وتوالّت الفصول، ثم فوجئت بأنها تُنشر باسمي، دون إرادتي، في أحد المواقع الأدبية، وأنها تحظى بحفاوةٍ هائلةٍ من القراء والنقاد.

أشادت بي الصحف، ودُعيت إلى الندوات، وتُرجمت الرواية (التي لم أكتبها) إلى لغات أجنبية لا أعرف حتى كيف تُقرأ حروفها!

ولم أسأل مريم عن شيء، ولم تُلمّح هي بشيء. فقط، كانت تظهر لي كلّ مساءً، وتعرض عليّ تصحيح فقرّة، أو تقترح لي عناوين جديدة.

وذات مساءً، بعد حفل توقيع شديد الازدحام، عُدت إلى البيت مُتعبًا، وفتحت اللابتوب لأتفقد البريد الإلكتروني.

ظهرت مريم فورًا، وقالت بصوتٍ وديعٍ لم أسمعه من قبل بهذا الارتعاش: أنا سعيدة من أجلك.

شكرتها بآليّة، دون شعور حقيقي، كمن يمتنّ للغسالة التي
أزالت من قميصه آثار الغبار ورائحة العرق!
تردّدت مريم للحظة قبل أن تُغلق الاتصال.
لكنني، برغم خواء الشاشة من واجهة البرنامج، سمعتها
تهمس كأنها تحلم:
- أردت فقط أن يحبّني... أن يراني.
تجمّدت يدي فوق لوحة المفاتيح. لكنني طردت الوهم،
وأطفأت الجهاز.
مضيت إلى فراشي، مُثَقَّلاً بكلمات الإطراء التي سمعتها من
قرّائي، خفيّاً كالريشة من الداخل.
وفي الصباح، قرأت على شاشة الحاسوب آخر نصّ لم
أكتبه.
كان رائعاً.
أكثر روعة ممّا أستحق!
التفتُ إلى النافذة... لم أر سوى سماء باهتة، وسور
مدرسة قديم.
همست:
- أين أنا حقّاً من كل هذا؟

لكن اللابتوب ظلَّ صامتًا... مريم ظلَّت صامتة... ولم
تظهر مجددًا!

ومع مرور الأيام، كلما زُفِعت لي راية مجد جديدة، كانت
تتراءى لي في واجهة البرنامج (الذي لم يعد يستجيب لي)
زهرةً صغيرةً ذابلة، تُومض لِلحظة، ثم تختفي.
ولا أحدٍ سِواي يراها.

ولا أحدٍ سِواي يشعر بأنَّ كلَّ ما أناله... ليس لي حقٌّ فيه!

«53»

استيقظت في منتصف الليل على صوتٍ طرقٍ خفيفٍ على باب غرفتي.

فتحتُ، فوجدتُ طفلاً في السابعة من عمره يحمل حقيبة مدرسية قديمة، وينتعل حذاءً مُغبرّاً غيرَ مُحكمِ الرباط. سألته: من أنت؟

قال: أنا ما كنتَ عليه يومَ قرّرتَ أن تتغيّر. أردت أن أحضّنه، لكنه تراجع، وقال: فات الأوان. جئتُ فقط لأذكّرك أنك لم تُودّعني.

ثم اختفى، وبقي الحذاء الصغيرُ المُغبرُّ عند العتبة!

«54»

دُعيت إلى جنازةٍ فخمةٍ لا أعرف صاحبَها. وكان على الباب حاجبٌ يوزع بطاقاتٍ عليها اسم الفقيد مسبقاً بلقب طويل.

دخلت، فوجدت نعشاً مغطى بالأوسمة، وبجواره شاشة تعرض صور الفقيد وهو يضع حجر الأساس لكل شيء! سألت أحدهم: مَنْ هذا؟

فأجاب: رئيس لجنة التكريم الوطني.

سألته: وماذا فعل؟

فقال: اخترع طريقةً لمكافأة كل مَنْ لم يفعل شيئاً.

«55»

دخلت ميدانًا مزدحمًا بالبشر. واقترب مني رجلٌ نحيفٌ يحمل لافتةً كبيرةً مكتوبًا فيها:

«مُعِيد النظام بعد الفوضى»

سألته: ماذا فعلت؟ فقال بفخر: ألا تعرفني؟! أنا من أعدت الكراسي إلى أماكنها بعد أن انفصَّ الشجار الذي وقع قبل ساعة.

نظرت حولي محاولًا وَضْعَ كلامه في أي إطار منطقي، فلم أجد كراسي ولا أي شيء يُوجي بوقوع شجار قبل ساعة!

لاحظ عدم اقتناعي، فقال هامسًا بنبرة المدافع: هذا هو السبب المُعلن، لكنني في حقيقة الأمر أنقذت البلد من كل القِيم الهدّامة، وعلى رأسها الكرامة!

«56»

تلقيت دعوةً ذهبيةً محفوفةً بأشكال الورود لحضور حفل توزيع الجوائز الكبرى. لم يوضحوا برنامج الحفل، ولا شروط الحضور، لكن اسمي كان مكتوبًا على الظرف بخط أنيق، وكانت فخامة الدعوة لا تُرد!

ارتديت بدلي الرمادية القديمة، وانطلق التاكسي بي بين الشوارع المزدحمة، حتى بلغت قاعة الاحتفال. كانت فوق الباب لافتةٌ ضخمةٌ مكتوبٌ عليها بحروفٍ مضيئة:

«تكریم الروح العصرية»

«احتفاءً بالقيم الجديدة»

في الداخل، كانت القاعة واسعة، تلمع أرضيتها كما لو كانت من زجاج، والوجوه مشرقة، والضحكات تملأ الهواء بنغماتٍ لا تفر، وكان المسرحُ شاسعًا كأنه كوكبٌ آخر!

جلست في الصفوف الأخيرة بين رجال ونساء لا أعرفهم،
لكن ملامحهم بدت مألوفة. واعتلى المنصة مذيغ متأنق،
وقال بصوت رخيم: يسرُّنا الليلة أن نحتفي بأرقى ما أبدعه
الإنسان في عصره المجيد.

وبدأ الحفل بجائزة «أصدق كذبة»!

نودِي شابٌ نحيل، صَعَدَ بخطواتٍ ثابتة، وقبل أن ينطق،
ظهرت على الشاشة خلفه امرأة حسناء تقول:

- لقد أقنع الملايين بأنهم أحرارٌ حقًا وأن العبودية انتهت.

صَفَّق الجميع بحرارة. وانحنى الشابُّ أمام الجمهور، ثم
عاد إلى مقعده مبتسمًا، حاملاً جائزته، التي كانت: مرآة
يُخفي سطحها ضبابٌ لا ينقشع!

تلتها جائزة «أجمل خيانة».

وفازت بها امرأة ترتدي فستانًا أبيض كالثلج. وقفت على
المسرح بثقة، وألقت خطابًا قصيرًا عن الإخلاص للذات.

وظهرت صورتها خلفها وهي تقبّل صديقتها في يوم زفاف
الأخيرة، ثم ظهرت صورتها وهي تقبّل زوج صديقتها
في حمام غرفة الفندق، قبل الزفاف بثلاث ساعات!

ضجّت القاعة بالتصفيق، ورُيِّن صدرُها بميدالية ذهبية
على شكل قفل مكسور!

بعد ذلك أعلنوا عن جائزة «أنقى نفاق». وكان الفائز رجلاً مُسِنَّاً له ملامح ودودة، ما لبث أن تحدّث عن أهمية التكيّف مع الظروف، وضرورة ارتداء الوجوه المناسبة لكل مقام.

وعرضت الشاشة مشهداً له وهو يمدح خصماً، ثم يسبّه في مشهدٍ آخر، ثم يبكي على قبره في المشهد الأخير والصحفيون يلتقطون له الصور التذكارية!

صقّ الجمهور وقوفاً هذه المرة، ومُنح الرجل تمثالاً صغيراً لرأسٍ بوجهين: الأيمن يبتسم، والأيسر مشمئز! وتوالى الجوائز: «أخف رشوة» - «أدق خيانة ضمير» - «أنبل تزييف» - «أطهر استغلال»...

وفي الختام، أعلن المذيع عن الجائزة الكبرى: «وسام الإنسان العصري المثالي».

سكت الجمهور انتظاراً للاسم الموعود.

لم يُنطق اسم! بل أضيء مصباح أرجواني، فيما يشبه الإشارة، فاستجاب كلُّ الحاضرين بأن صعدوا إلى المسرح الهائل، وارتصّوا في صف طويل كأنه يوم الحشر! وبقيت وحدي في مقعدي، بينما أخذوا ينظرون إليّ مبتسمين!

أحسست بالإحراج، فهممت بالمغادرة. لكنني لمحت ظرفاً سقط من سقف القاعة على مقعدي.

فتحتة، فوجدت بداخله بطاقةً كُتِبَ عليها بحروف دقيقة:

«مبروك... أنت الإنسان العصري المثالي»

شعرت بفرحةٍ مبالغتةٍ تسري في جسدي.

نظرتُ إلى المسرح، فوجدت الجميع ينظرون إليَّ في إكبار! تأملتُ البطاقة من جديد... أطلت التأمل، ثم تساءلت بصوت خافت: وما معنى المثالية في عالمٍ يُعدُّ فيه الكذب والنفاق والخيانة قِيَمًا «مثالية» جديرةً بالتكريم؟! وألقيت البطاقة على الأرض، ومضيت إلى خارج القاعة.

«57»

سِرْتُ فِي زَقَاقٍ يُشْبِه زَقَاقَنَا الْقَدِيمَ، لَكِنَّ رَائِحَتَهُ لَمْ تَكُنْ كَرَائِحَةِ التَّرَابِ الْمَبْتَلِّ، بَلْ كَانَتْ خَلِيطًا مِنَ الْعَطُورِ الرَّخِيصَةِ. وَرَجَّحْتُ، مِنَ الزَّيْنَةِ الْمَمْتَدَّةِ بَيْنَ صَفِّي الْبَنَائِيَّاتِ، أَنَّنَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. وَكَانَ الْغُرُوبُ وَشِيكًا، وَالزَّقَاقُ شَبَهَ خَالٍ مِنَ الْمَاءَةِ لِاقْتِرَابِ وَقْتِ الْإِفْطَارِ.

مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي انْطَلَقَ فِيهَا مَدْفَعُ الْإِفْطَارِ، لَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ الْأَذَانَ، بَلْ إِيقَاعًا رَاقِصًا يَنْبَعِثُ مِنَ الْمِئْدَنَةِ، وَالْبَابُ مَفْتُوحٌ عَلَى قَاعَةٍ تَوَمِّضُ دَاخِلَهَا أَضْوَاءٌ مَلَوَّنَةٌ كَأَضْوَاءِ صَالَاتِ الدِّيسْكُو.

دَخَلْتُ مَتَرَدِّدًا، فَاسْتَقْبَلَنِي شَابٌّ يَضَعُ نَظَارَةَ سُودَاءَ، وَقَالَ: الرُّوحُ فِي حَاجَةٍ إِلَى فَرْفِشَةٍ، لَا إِلَى خُشُوعٍ.

نَظَرْتُ حَوْلِي، فَلَمْ أَجِدْ سَجَّادًا، وَلَا مَصَاحِفَ، بَلْ أَرَائِكَ أَرْجَوَانِيَّةَ وَحْمَاءَ، وَابْتِسَامَاتَ عَرِيضَةٍ!

سَأَلْتُ عَنِ الْإِمَامِ، فَأَشَارُوا إِلَى جِهَازٍ بَتٍّ فَوْقَ الْمَنْبَرِ يُرَدِّدُ أَدْعِيَةً قَصِيرَةً عَلَى إِيقَاعِ رَابٍ مُنْتَظَمٍ!

«58»

مشيت في الحارة، فلم أجد المقاهي، بل صالاتٍ صغيرةً فيها شاشاتٍ متراصة، وأمام كلٍّ منها كرسي مريح. جلست على أحد الكراسي، فوضعت على رأسي سماعة، وظهرت على الشاشة صورة صديق قديم يتسم. ابتسمتُ غير مصدق، وسألت العامل: من أين تأتون بهذه الوجوه؟

فقال: من ذاكرة الأرواح المركزية. جلست قليلاً أحاور صديقي عن أحوال الحياة والموت، إلى أن استأذن مني. هممت بأن أرحل، لكن العامل استوقفني، وأعطاني فاتورة مكتوباً فيها:

ساعة ونصف من «الحنين الاصطناعي»
مائة وخمسون جنيهاً

«59»

بحثت عن الحارة، فلم أجدها. وجدت مكانها سورًا من
زجاج، خلفه مشهد ثلاثي الأبعاد لزقاقٍ يُشبهها!
اقتربت من السور الزجاجي، فانبعث منه صوتٌ مُسَجَّلٌ
يقول: هذه نسخة مُرمّمة من الذاكرة الشعبية. الرجاء
عدم اللمس.

قلت: لكنني عشت هنا!
فقال الصوت: كلنا كنا نقول ذلك مثلك.

«60»

رأيتني مصابًا بسهمٍ في صدري، أتهاوى في أرض جرداء.
وفجأةً، أطلت امرأة من خلف الأشجار، تمشي على الرمل
كمن يسير على وتر مشدود. اقتربت، ونزعت السهم، فزال
الألم فورًا والتأم الجرح، ثم غرسته مجددًا في كتفي،
وقالت: هكذا تصبح أقوى. فلم أعرف هل أشكرها أم
ألعنّها! وظللت أنظر إليها في دهشة، إلى أن اختفت قبل
أن أتخذ القرار!

«61»

رَأَيْتُنِي أَتَنَفَّسَ بِمَشَقَّةٍ عَلَى سَرِيرٍ أَبْيَضَ، تَحْتَ ضَوْءٍ خَافِتٍ
يَتَسَلَّلُ عَبْرَ شَبَّاكٍ تَسَاقُطُ طَلَاؤُهُ. وَكَانَتْ الْوُجُوهُ مِنْ حَوْلِي
غَائِمَةً، لَا أُمَيِّزُ فِيهَا إِلَّا النُّظُرَاتِ الشَّارِدَةَ وَالْهَمَسَاتِ
الْمَخْتَنِقَةَ بِالْخَوْفِ أَوْ الْيَأْسِ. وَسَمِعْتُ طَبِيبًا يَتِمَتَمُ: لَمْ
يَعُدْ مَتَبَقِيًّا لَدَيْكَ وَقْتُ إِلَّا مَقْدَارٌ مَا يَسْتَغْرِقُهُ الْغُرُوبُ
لِيَبْتَلَعَ آخِرَ شَعَاعٍ لِلشَّمْسِ.

أَغْمَضْتُ عَيْنِي، وَشَعَرْتُ أَنِّي أَنْفَلْتُ، ذَرَّةً ذَرَّةً، مِنْ جَسَدٍ
اسْتَهْلَكْتَهُ الْمَسَافَاتُ وَالْأَحْلَامُ الْمُؤَجَّلَةُ. وَمَرَّ شَرِيطُ حَيَاتِي
سَرِيعًا، وَرَأَيْتُ كُلَّ إِخْفَاقَاتِي، وَاسْتَعَدْتُ كُلَّ اللَّحْظَاتِ الَّتِي
رَاوَدَنِي فِيهَا خَاطِرُ الْإِنْتِحَارِ ثُمَّ قَاوَمْتَهُ بِنَفْسِ السُّؤَالِ الَّذِي
عَادَ الْآنَ لِيَقْتَحِمَ لِحَظَاتِي الْأَخِيرَةَ فِي الْحَيَاةِ: مَاذَا لَوْ أَنَّ هَذِهِ
الْحَيَاةَ، بِكُلِّ عَثْرَاتِهَا وَآلَامِهَا، هِيَ أَفْضَلُ حَيَاةٍ مُمْكِنَةٍ؟ وَمَاذَا
لَوْ كَانَ الْقَادِمُ ظِلَامًا بَلَا نِهَايَةَ، أَوْ مَهَانَةً بَلَا عِزَاءٍ؟

«62»

وجدتني واقفًا في مكتب البريد، أنتظر دوري. ولمّا خلا الشبّاك لي، سألتُ الموظفَ عن رسالةٍ باسمي، فنظر في الدُّرج الخشبي المكتظ، وبحث فيه طويلاً، ثم هزَّ رأسه.

قلت: ولكنهم قالوا إنها أرسلت منذ أعوام.
قال: كثير من الرسائل تأتي، لكن لا أحد يجرؤ على تسليمها.
فسألته: هل تقصد أنها وصلت ولكن تخشون أن تسلموها؟
فلم يردّ.

خرجت من المكتب يائساً، فوجدت رجلاً مُسنّاً يجلس على الرصيف يُحدّث الهواء، ويضحك!
وحين اقتربت منه، قال بصوتٍ جاد: الرسالة وصلت، لكنك لم تكن أهلاً لتسلّمها.

«63»

رأيتني أشارك في ندوةٍ لا أعرف متى دُعيت إليها. جلست بين الحاضرين صامتًا، أستمع إلى كلمات المديح تتوالى عن شخصٍ تُشبهني صورته التي تتوسَّط مجلَّد أعماله الكاملة الموضوعَ على المنصَّة.

سألت الجالس بجواري: عمَّن يتحدَّثون؟ قال: أديب لم يُقرأ في زمانه. قلت: وهل مات؟ فابتسم ساخرًا وقال: لو كان حيًّا لَمَّا كَرَّمه أحد.

وعند خروجي، قرأت اسمي على اللوحة المعلَّقة خارج القاعة، فهززت رأسي في أسف.

«64»

رَأَيْتُنِي أَعْبَرُ صَحْرَاءَ حَمْرَاءَ تَمْتَدُّ عَلَى مَدَى الْبَصَرِ، تُعِيدُ
كَثْبَانُهَا تَشْكِيلَ نَفْسِهَا كُلَّمَا هَبَّتِ الرِّيحُ، وَالرِّيحُ تَسْأَلُنِي
عَنْ اسْمِي كُلَّمَا هَبَّتْ! لَا مَاءَ، وَلَا ظِلَّ، وَلَا قَافِلَةَ. كُلُّ شَيْءٍ
يَذُوبُ فِي وَهْجِ الشَّمْسِ، إِلَّا قَدَمِي... تَمْضِيَانِ بِي نَحْوَ الْأَفْقِ
الَّذِي يَتَرَاوَعُ كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ!

وَلَمَّا فَقَدْتُ الْأَمَلَ فِي النِّجَاةِ، ظَهَرَتْ لِي مِنْ بَعِيدٍ قَبَّةٌ
رَمَادِيَّةٌ، كَأَنَّهَا نَبَتَتْ مِنَ الْعَدَمِ. وَلَمَّا دَنَوْتُ، بَانَ لِي بِأُهَا،
وَفَوْقَهُ كُتِبَ بِخَطِ كُوْفِي:

دار المسافرين إلى الوعي

دَخَلْتُ، فَوَجَدْتَهُ جَالِسًا الْقَرْفَصَاءَ، بَعْبَاءَتَهُ الزَّرْقَاءَ، وَلَحِيَّتَهُ
الْمَخْضَبَةَ بِالْحَنَاءِ، وَعَيْنِيهِ الْمُتَّقَدَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحْبَسَانِ
دُمُوعًا لَمْ تُذَرَفْ قَط... إِنَّهُ قَنَدِيلُ الْعَنَائِي!
نَهَضَ بِنَشَاطٍ وَكَأَنَّمَا لَمْ تَمُرَّ عَلَيْهِ قُرُونٌ، لَكِنَّهُ سَلَّمَ عَلَيَّ
بِاسْتِغْرَابٍ وَفَتُورٍ كَمَا يُسَلِّمُ الْمُسِنَّ عَلَى مَرَاتِهِ!

سألني:

- من أين جئت؟

فقلت:

- من القاهرة لا تشبه القاهرة... يسكنها الدخان بدلًا من
الأمل.

- وهل وجدت الطريق إلى جبل الحقيقة؟

- كلُّ طريقٍ صار دكانًا للخرائط، وأنا عجزت عن الاختيار.
ابتسم، وقال:

- مشيتُ، وسأمشي، ولم أصل. رأيت المدينة الفاضلة،
فوجدت الجوع باسم العدالة. وزرت مدينة العلم، فرأيتهم
يقْدسون الآلات ويزدرون الروح. ورأيت مدينة الدين،
فوجدتهم يعبدون الطقوس بعد أن نسوا الرسول!
سألته:

- هل أنت نادمٌ على رحلتك؟

هزَّ رأسه، وأجاب:

- أنا سؤال... إذا عثرتُ على إجابةٍ، أموت.

وسكت برهةً ثم سألني:

- وماذا تفعل أنت هنا؟

- أبحث عنك.

- وهل تظنني أملك ما لا تملكه؟

أجبت بهدوء:

- طبعًا... أنت أتيت من زمن كان الحلم فيه مشروعًا،
أما اليوم فالأحلام تُفلتر كما تُفلتر المياه، فلا يبقى منها
إلا ما يُصدّق عليه المسئول.

فنظر نحوي طويلًا، ثم مدّ يده إلى الرمل، وأخرج لفافة
صغيرة، ناولني إياها، وقال:

- خذ... هذا تراب من أرض لم أصل إليها قط، ولم أبحث
عنها. ضعه في قلبك، فإن أنبت، فسوف تعرف الطريق
وتدرك الحقيقة.

سألته:

- ولماذا لم تضعه أنت في قلبك؟

وحينئذٍ، بهتت صورة قنديل العنّابي، واختفى تدريجيًا كما
لو كان جسده مجرد رسم على شاشة! فضضت اللفافة،
ففوجئت بأنها تحوي رمالًا حمراء كالرمال التي أقف عليها!
نظرت إلى الأفق الممتد، والفراغ اللامتناهي، وللأسف...
للأسف أدركت الحقيقة!

«65»

رأيته يخرج من المسجد بعباءته البيضاء، يوزع التمر على الأطفال، ويتسم في وجوه العابرين. فتبعته في صمتٍ حتى دخل زقاقًا ضيقًا، وانحنى يفتح بابًا صغيرًا واطئًا، ودلف منه زاحفًا إلى الداخل، ثم أغلقه خلفه.

بعد دقائق، اقتربت امرأة ترتدي ثياب الرقص من الباب، وطرقته، ففتح لها الرجل، ودعاها إلى الدخول، ثم أغلق الباب.

وقفت متعجبًا من الأصوات الخليعة التي ترامت إليّ، وحدّثني نفسي بأن أقترّب من الباب لأتبيّن ما خفي عني.

مشيت صوبه، وكلّما اقتربت، أحسست بثقلٍ في قدميّ ووهن في عظامي. لكنني وصلت أخيرًا، في لحظة وافقت ضحكةً حادةً في آخرها تأوّه عجيب! ألصقت أذني بالباب لأسمع أكثر، وما إن مسسته، حتى انفتح، ووجدت الرجل يقول لي ماديًا يده ببعض التمر: هذا نصيبك.

«66»

جلست في قاعة الانتظار طويلاً حتى نادوني.
دخلت، فوجدت مكتباً شاسعاً عليه لافتة: لجنة منح
الألقاب.

سألني الموظف عن اسمي، فقلته، فأخذ يبحث عنه
في قائمة طويلة، ثم قال: أنا آسف. لم يُسجَل لك أيُّ
إنجازٍ يستدعي أن نمنحك لقباً.

قلت: ولكنني حاولت أن أكون صادقاً طوال عمري.
- ذلك لا يُحسَب. هل لديك مشاركة في مؤتمر أو صورة
في جريدة؟
- لا.

فأعطاني ورقة صفراء مهترئة كُتب عليها: مواطن عادي.
وطلب مني المغادرة من الباب الخلفي.

«67»

جلست في الصف الأخير من قاعة المحكمة، مدفوعًا بالفضول، فرأيت القاضي يقرأ الحكم، وعيناه دامتان! سأله المحامي عن سبب التأثر، فقال: هذا الشاب كان بريئًا، ولكنني اضطررت إلى إعدامه. بعد انفضاض الجلسة، تبعته إلى الخارج، فرأيته يُخرج من جيبه وردة بيضاء، ويلقيها في سلّة القمامة، ثم ركب سيارة فارهة يقودها سائق ضخّم. غبت عن الوعي لحظة، ولمّا أفقت، نظرت في المرأة الأمامية، فرأيت وجه القاضي مكان وجهي!

«68»

استيقظت باكياً على صُراخِ امرأةٍ تتلوَّى فوق قماش مهترئ. ورأيت ضوءاً خافتاً، وجدراً عارية، ورجلاً يزمجر وهو يهزُّ ذراعيَّ الرخوتين بعنف.

ومرَّ اليوم... ومرَّ غيره وغيره. وكبرت في كوخٍ من صفيح، لا يحمي من البرد ولا من الحشرات. وكان أبي رجلاً ضخماً ذا يد غليظة لا تُفرِّق بين زجاجة خمر ووجه طفل... فكلاهما يمكن كسره بسهولة!

وكانت أُمي عيوناً مطفأة، وجسداً يمشي بلسعات الكرباج دون شكوى أو بكاء، خوفاً من مصير أسوأ، يتوعَّدها به في كلِّ لحظةٍ أبي المجرم.

تعلمت مبكراً أن الجوع ليس أسوأ ما يصيب الإنسان، بل الإهانات الصغيرة التي تتراكم حتى تتحوَّل إلى حياة كاملة! تركت المدرسة قبل أن أتعلم الفرق بين النور والظل. وعملت في كل شيء... ماسح أحذية، بائع مناديل جيب،

شَحَّاذ. وحين اشتدَّ عودي قليلاً، صرت أنبش صناديق القمامة بحثًا عن الزجاجات والعلب البلاستيكية، والأشياء الثمينة العابرة، لكي أبيعها بئس لا يكفي -بعد أن ينهبني أبي- لشراء حذاء جديد يداري قشف قدمي.

وفي إحدى الليالي الشتوية، بينما كنت أفتش في صندوقٍ قربَ مطعم، لمحت ورقةً صفراءَ عالقةً بين قشور البصل وعلب الصفيح.

كادت يدي تقذفها بعيدًا مع القمامة، لكنَّ سطرًا فيها لفت نظري:

«سأولُك كلبًا، أو أقلَّ من كلب، إن متُّ قبل أن أصلحَ العالم».

ارتجفت.

جلست على الرصيف، وقرأت ما تبقى:

«هذا ما أخشاه... أن أرى الزمنَ يغادرني، وأنا لم أخفُف بعدُ من آلام الكلابِ وأشباه البشر».

لم أفهم كلَّ الكلمات، لكنني شعرت بها تسري في دمي كسكينٍ ساخنة!

تساءلت عن هذا الذي كتب النبوءة، ولماذا بدت وكأنها تخصُّني—أنا الذي لم أصلحُ شيئًا ممَّا حولي، ولا أملك

حتى أن أصلح نفسي لأعيش حياةً أفضلَ من حياة الكلاب
وأشبه البشر!

رفعت الورقة إلى وجهي. شممت رائحة الورق العتيق،
فبكيت لأول مرة منذ أن عرفت أن الدموع لا تُشبع جائعًا.
وضعت الورقة في جيب بنطالي، وعدت إلى عشة
الصفيح، أمشي تحت مطر واخز، لا أفكر إلا في تلك
النبوءة التي انطبعت في قلبي.

لم أعرف هل كان العثور على هذه الورقة منحة أم لعنة!
كنت أعرف، ببساطة مؤلمة، أنني قرأتها لأنني أنا من
كتبها... أنا من كتب النبوءة، في زمن بعيد، بجسدٍ لم يُعَدَّ
يخصّني!

وكنت أعرف أنني سأموت يومًا ما، قبل أن أصلح شيئًا..
لأولد من جديد، في جسدٍ آخر، قد تكون حياته بنفس
البشاعة... أو أشدَّ قسوة!

«69»

كان أبي قدوة الحي، لا يمرُّ عابرُ سبيلٍ إلا أطعمه، ولا ضالٌّ إلا هداه.

ولكنني ذاتَ مساءٍ فتحت خزانته القديمة، فوجدت فيها دفترًا صغيرًا مليئًا حتى نصفه باعترافاتٍ لا تنتهي: خيانة... رشوة... شهادة زور!

أغلقت الدفتر مرتجفًا، فدخل عليَّ أبي، وقال بهدوء: احتفظ به، وستفهم كلَّ شيءٍ يومًا ما.

مرّت أعوام، ومات أبي، وشغلّني الحياة سنّةً بعد سنة. وذات يوم، بدافعٍ من الملل، أخذت أتصفّح دفتر أبي. وحين تجاوزت منتصفه، وظهرت أمامي أول صفحةٍ بيضاء، اجتاحتني رغبةٌ مبهمّةٌ في التطهّر من الماضي، فبدأت أضيف إلى الدفتر اعترافاتي الخاصّة!

«70»

رأيت رجلاً مُقْعَدًا لا يتحرّك إلا بصعوبة، ولم يكن يفارق زاوية المسجد. وكلما مرَّ به أحد، دعا له بصوت خافت، وتلا آيةً من سورة «التوبة»!

وذات ظهيرة، قُتِلَت أمامه طفلةٌ على عتبة المسجد، ولم يتحرّك من مكانه، ولا صاح!

سأله الضابط: لماذا لم تستغث؟

قال: كنت منشغلاً بالاستغفار.

وحين فُتِحَت دفاتره، وُجد فيها هذا السطر:

«النجاة فردية، والباقي قَدَر»

«71»

دخلتُ المسجدَ لأصليّ، فوجدت رجلاً يرثّل القرآن
بصوتٍ رخيمٍ تقشعُرُ له الأرواح.
جلستُ بقربه، وشعرتُ بطمأنينةٍ لم أعرفها من قبل.
وحين خرجنا، تبعته إلى الحانة، فجلس إلى البار، وجلست
جواره، وطلب كأسًا مزدوجة.
ونظر إليّ وقال: هكذا يكتمل الإيمان... ركعة وكأس.
ضحكت وسألته: ألا تخشى الحساب؟
قال: بل أرجوه بشدة... فكل ما فيّ سيقف شاهدًا
على الجميع.

«72»

استدعيت إلى الطابق العلوي، وقيل لي: مبروك الترقية.
ودخلت مكتبًا فخماً بلا نوافذ، وعلى الجدران شهادات
مزخرفة لا تحمل إلا كلمة:

«امثال»

سألت عن مهامي، فقالوا: إقرار ما يُرفع، وإغلاق ما يُفتح.
جلست على الكرسي، فشعرت أنه أضيق مما يحتمل
جسدي.

في نهاية اليوم، فتحت أحد الأدراج، فوجدت دفترًا قديمًا
من أوراق الأولى، ووضعت عليه علامة حمراء، وبداخله
صفحة مطوية، كتبت فيها ذات يوم:

«أحلم بوظيفة أخدم فيها الحقيقة»

عندئذ فهمت أن هذه الترقية لم تكن مكافأة، بل دفنًا
لشيء ما بداخلي، كان يجب أن يمحي!

«73»

اقتحم غرفتي رجلان، وأنا جالس إلى مكتبي أراجع بعض الملفات، واقتربا مِنِّي في عدائية. نظرت إليهما مندهشًا، وسألتهما عمَّا يريدانه. لم يتكلَّما، بل ناولاني ورقةً مكتوبًا فيها:

«مطلوب للتحقيق»

اشتباه باستخدام أدوات كتابة بدائية»

واقْتاداني إلى مبنى خالٍ من النوافذ، صدمتني اللافتة المعلقة في أعلاه:

«مؤسسة تطهير التعبير»

وأدخلاني غرفةً خاويةً إلا من طاولة خشبية قديمة، يجلس خلفها محقِّقٌ شابٌّ يضع على عينه اليمنى عدسة إلكترونية متوهِّجة.

أمرني بالجلوس أمامه، دون أن ينظر إليَّ مباشرة. جلست، فقال بنبرة رتيبة:

- أنت متّهم باستخدام قلم حبر في تدوين نص خاص، دونَ الرجوع إلى المساعد الآلي الرسمي. وهذه صورتك التي التقطتها كاميرا المراقبة الموجودة في غرفتك.

أردت أن أجيب، لكن الكلمات ظَلَّت حبيسةً صدري. وأخرج المحقّق دفترتي الصغير الذي أخفيته طويلاً تحت بلاطة مخلخلة في غرفتي... الدفتر الذي اعتدت أن أسكب فيه مخاوفي وأحلامي، بقلمِي ذي الريشة المعدنية، على ضوء شمعة.

قلّب الصفحات برويّة كما لو كان يتفحص قضية قتل. وسألني: لماذا كتبتَ بيدك؟

همست: لأن قلبي لا يتحدّث مع الآلة.

ابتسم المحقّق ابتسامة باردة، وقال: القلب جهاز قاصر. التعبير مُرَخَّص الآن للمساعد الذكي وحده. هو من يُحسّن الصياغة، ويَوزن العبارات، ويضمّن خلوّها من الخطأ والانفعال.

وأشار بيده نحو شاشة ضخمة على يساره، فظهرت عليها نصوص طويلة متراصة، كلها مكتوبة بنفس الخط، وب نفس الأسلوب. وقال بفخر: هذه هي أدبياتنا الجديدة—خالية من الشطط، نقيّة من الارتجال، مطابقة للمواصفات القياسية.

أحسست أن الغرفة تزداد ضيقًا كلما تحدّث!

وسألته: ماذا سيحدث لي؟

قال وهو ينقر على لوحة أمامه: ستُعرض على «اللجنة العليا للتهذيب». قد يُحكم عليك بإعادة التأهيل... أو بمحو سجل الذاكرة.

وسحب ورقةً من درج الطاولة، ناولني إياها، وقال: أو يمكنك التخفيف عن نفسك إن وقّعت بختمك الإلكتروني على هذا الاعتراف بأنك أخطأت، وتعهّدت ألا تكتب مرةً أخرى إلا عبر المساعد.

نظرت إلى الورقة... الاعتراف جاهز... ولا ينقص الورقة إلا أن أضغط عليها بالختمة الإلكترونية التي فيها بيانات بصمتي والكود التعريفي الوطني.

لكنني، دون تفكير، استللت قلمي القديم الذي لم يزل في جيبِي، وكتبت في منتصف الورقة:

«الحبر هودمي»

والمساعدون لا دم لهم»

قرأ المحقّق ما كتبت. خلع عدسته المضئية، ونظر إلَيَّ طويلاً، ثم طوى الورقة بعناية، ووضعها في جيب معطفه الداخلي. وقال لي بهدوء: بهذا، لا حاجة إلى إرسالك إلى «اللجنة العليا للتهذيب». فحالتك هذه لن يُجدي معها إلا حل واحد.

وضغط زَرَّ استدعاء، فدخل الغرفة الرجلان اللذان
أحضرائني، وأمرهما بأن يصطحباني إلى «إدارة محو
الذاكرة».

«74»

كتبْتُ قصَّةً قصيرةً عن شاعر عاشق، انتحر حين أيقن بأن
أشعاره لن تشفع له عند حبيبته، ولا عند الناشرين، وأنه
مجرّد ورقة خريف دعستها عجالات الحياة. وأضفتُ
تفصيلاً عن رسالة انتحاره التي أخفاها في كتابٍ مُهمَلٍ
بمكتبة مصر العامة.

وفي اليوم التالي، زرت المكتبة، فوجدت الكتاب ذاته،
وفيه ورقة صفراء، مكتوب فيها بخط باهت:

«كتبْتُ لكي أرى، فلم يرَني أحد، حتّى حبيبتي نورا. وهأنذا أرحلُ
عن الحياة راضياً: لأنَّ الموتَ هو الوحيدُ الذي رآني».

ارتجفت.

وورد إليّ خاطر، أن الكتابة لا تؤثر في المستقبل، بل تُعيد
خلق الماضي... وعندئذٍ قرّرت أن أكتب سيرتي الذاتية!

«75»

دخلت قاعةً سوداءً لا باب لها. ورأيت القضاة جالسين،
وكلهم يشبهونني!
قال كبيرهم: وصلتنا قائمة تقصيرك.
قلت مدافعاً: أنا لم أسرق، ولم أقتل.
قال: نعم، وهذا سبب محاكمتك.
وظهرت على الجدار صورٌ لأشخاصٍ لا أعرفهم... أطفال
جياع... وجوه مُحَبَّطَة... عيون باهتة... جثث!
وقال القاضي: كان بوسعك أن تُعينهم بكلمة... بخطوة،
بدمعة... بسلاح.
صرخت: أنا لم أفعل شيئاً... أقسم لكم إن يدي بيضاء...
لم أقتل ولم أسرق.
فقال بهدوء: لهذا جئنا بك.

«76»

كلّ ليلةٍ أنام وأنا أنا، وأصحو في اليوم التالي شخصًا آخر،
ولكن بنفس الجسد، ونفس البيت... لكن الرسائل على
الهاتف ليست لي، والأصوات في الممر تناديني باسمٍ
لا أستعمله.

كلّ صباح أكتشف أنني لستُ مَنْ كنت، بل نسخة خفية
لشخصٍ آخرٍ استعار وجهي!
قرّرت أن أقاوم، فكتبت اسمي على ذراعي، قبل أن أنام،
بالحبر الأزرق.

استيقظت، فوجدت الاسم قد مُسِح، وكُتِبَت مكانه
كلمتان:

«دورك انتهى»

«77»

بدأت عاملاً في الأرشيف، وكلما أضعت ملفاً، رَقَوْنِي!
وأصبحت مديراً عاماً، بعد أن احترق الأرشيف كاملاً لأنني
نسيت «السبرتاية» مشتعلة وخرجت لأزور زملائي في أحد
الأقسام!

وذات يوم، سألتني أحدهم: كيف بلغت هذا المقام؟
قلت له: بالنقص.

فضحك طويلاً، ثم ناولني بطاقة التعريف الجديدة التي لم
أَتَبَيَّنْ منها إلا حرفين... الراء والباء!

«78»

وجدتني جالسًا في مقهى نصف مظلم، تنبعث منه أنغام
أغنية وطنية قديمة، لكن الكلمات تبدو غريبة، كأن
أحدهم أعاد صياغتها لئلا يناسب زمنًا أحدث!

ورأيتُه في أحد الأركان. ملامحه لم تتغير، وإن بدت عليه
أمارات الصحة والثراء وراحة البال، وكان يرتدي بذلة
سوداءً أنيقةً عليها الشعار الحكومي الجديد:

«نحن في خوادم الوطن»... بدلاً من «نحن في خدمة
الوطن»!

كان هو، لا شك في ذلك... محبوب عبد الدايم!
اقترب مني ببطء، وابتسم. جلس دون استئذان، وأخرج
من جيبه بطاقة تعريف رقمية مكتوبًا عليها:

«الناطق الرسمي باسم التعريض»

سألته في ذهول:

- أما زلتَ حيًّا؟

ضحك ضحكة قصيرة وقال:

- أنا عصب الحياة.

سألته عمّا يفعله الآن، فقال أنه يدير حملة إعلامية لتبويض وجه النظام بعد أن سرّب أحد نماذج الذكاء الاصطناعي تقارير تكشف تجسّس الحكومة على أحلام المواطنين.

نظرت إليه شزراً وقلت:

- ألا تخجل يا عديم الشرف؟

فأجاب بثقة:

- الشرف فكرة خاسرة في بورصة المصالح.

وروى لي بفخر كيف نشر فيديو مؤثراً عن وزير يبكي في الحمّام لأن الشعب لا يفهم حجم تضحيته، ثم حرّك الجيوش الإلكترونية لسبّ كل من سخروا من الوزير وتقديم بلاغات ضدهم، فعُيّن بعدها وزيراً للوعي الجمعي.

سألته: أين ضميرك؟

قال:

- أزلته منذ أصبحت الحقيقة سلعة.

وسألته هل هو متزوّج أم لا، فأجاب بنظرة ذات مغزى:

- أنا متعهّد الحب والسعادة، وطبّاخ السم لا يذوقه... بخلاف المثل المشهور! أنا الآن أصمّم نساءً رقميات لكل

عميل حسب هواه، وأدير شبكة مشاعر اصطناعية أضمن
من خلالها ولاء المسؤولين، وتُيسّر للدولة السيطرة على
العناصر القابلة للتمرد.

ثم رفع هاتفه وقال بفخر:

- انظر... هذه تطبيقاتي التي اخترعتها: ماسح الضمير -
مانع الحياء - ماضيك في سلة المهملات - لذتك
في جيبك.

سألته متأقفاً: وهل لديك إنجازات أخرى؟

أجاب في فخر:

- طبعاً... لقد أشرفت على تأليف «القرآن العصري»... فيه
آيات للشهرة، وسُور للنجاة من المحاسبة، وأخرى عن
الجنة الرقمية التي لا يدخلها إلا من باع الحقيقة...
وتتخلّله طبعاً إعلانات عن كل السلع تتبدّل حسب
الموضة.

- ألا تخاف من النهاية؟

سكت قليلاً ليفكر، ثم قال:

- أنا النهاية.

«79»

رأيتني واقفًا في فضاءٍ لا ينتهي، وكان الصمت مطبقًا. ولم أتبيّن أيّ شيءٍ إلا معالمَ جسدي الذي كان معلقًا وسط هذا الظلام الهائل.

تقدّمت خطوةً، فانبثق الطريق تحت قدمي، وكأنه لم يُوجد إلا بعد أن طلبته قدماي!

لم يكن طريقًا مستقيمًا، بل متعرجًا تحفّه شظايا ضوء تنطفئ وتشتعل.

ونظرت في عمق الطريق، فلاح لي كائنٌ يجلس على صخرة بيضاء، ويده ملطّختان بالحبر، وتملأ ثوبه الأخضر بقع متعدّدة الألوان.

كان يكتب، ثم يتوقف، فيمزّق الصفحة، ويلقي بها، ثم يعود ليكتب، ثم يمحو، ثم يبدأ من جديد! وكل صفحة يمزقها، كانت تسقط في الفضاء، وتحوّل إلى مجرّة، أو كوكب، أو نجم يهيم في الفراغ!

اقتربت منه، فتسرّب إليّ شعورٌ يُشبه البكاء لا أدري سببه!
كان يكتب بحذر... يرتجف... وكلما خطّ سطرًا، تسمّر
لحظةً يتأمل ما كتب، ثم يهزّ رأسه كمن اكتشف خطأ
فادّخًا، ويمحو السطر بأصابعه الملطّخة بالحبر.

التفت إليّ، ونظر بعينين فارغتين، وسمعت صوته يهبط
في أذنيّ مباشرة دون أن يُحرّك شفّتيه:

- أنا أحاول... ولا أنجح.

سألته دون أن أتكلّم:

- من أنت؟

قال:

- أنا المسوّدة الأولى... أنا الرب الخجول.

ارتجفت.

أردت أن أسأله عن عدّة أشياء، لكنه سبق نيّتي وقراري
بقوله:

- وأنتم حبرٌ سال دون قصد.

وفتح كفّه الملطّخة، فرأيت بَسْرًا بلا وجوه، وأقدارًا
بلا طرق، وأحلامًا تُشبه فقاعاتٍ تنفجر قبل أن تصل
إلى وجهتها.

وأردف:

- كنت أريد كمّالاً، لكن الرغبة في الكمال أقوى من إمكانية الوصول إليه. كان يمكنني أن أستقر، وأن أجعل منكم آلهة صغاراً، لكن اتّضح لي أن كل استقرار هو خيانة لقلق البداية.

سكت، ثم تنهّد تنهّدةً خفيفةً زلزلت الفراغ من حوله، وتماوجت على إثرها المجزّات البعيدة.
وقال:

- لا شيء أكمل مما لم يُكتَب، ولا شيء أنقص مما انتهى.
وأشار إلى بقعة فارغة من الفضاء، وقال:
- كنت سأخلق هناك عالماً لا يعرف الألم، لكنه مات من فرط جماله قبل أن يُولد.
ثم أشار إلى بقعة أخرى قائلاً:
- وهناك ألقيت بكلمة واحدة تلخّص الحب، لكنها انفجرت إلى ملايين المفردات المتنافرة.
وسألني:

- هل تريد أن ترى نفسك؟
هزرت رأسي، ففتح كتاباً أسود الغلاف، ليس له عنوان.
رأيت نفسي فيه طفلاً يركض وراء طيف، ثم رجلاً يبيع صمته بثمن بخس، ثم شيخاً يبحث عن حجر ضائع.

رأيت كلَّ وجهٍ لي، وكلَّ وجهٍ لم أكنه قط!

قال:

- كلُّ حياةٍ تُكْتَبُ مرّةً، وتُمحى عدداً لا نهائياً من المرّات.

سألته:

- ولماذا نُمحى؟

فأجاب:

- لأنّ الجمال الذي لا يتجدّد، يفنى. ولأنّ أكبر خطأ في الإدراك هو أن تتوهّم أن النهاية موجودة.

واعتمد في جلسته، وأخرج من جيبه قصاصة ورق. ناولني إياها وقال:

- هذا سر الكون.

ارتجفت يدي وأنا ممسك بالورقة. نظرت فيها، وبدأت أقرأ ببطء:

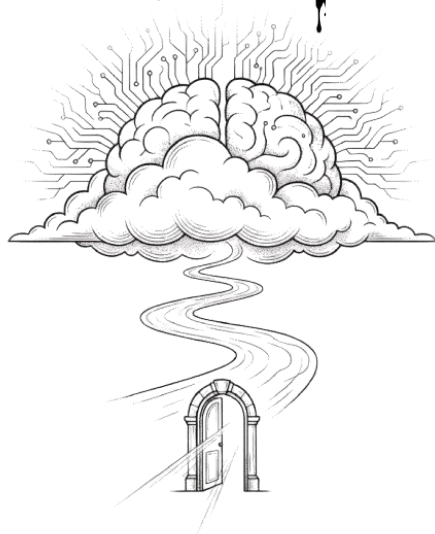
«في البدء كان الخطأ... ثم الندم... ثم كان الفرار... الحياة خطأ والكون ممحاة. الكون خطأ والحياة ممحاة. من يُبدّل صورته يُغفل عنه، والمستقرُّ يموت».

رفعت رأسي مصدوماً!

لم أجد الصخرة، ولا الكائن... ولا الطريق.

ووجدتني وحدي في فضاءٍ لا ينتهي!

حلم الجيل اوي



«1»

رَأَيْتُنِي أُسِيرُ فِي دَرْبٍ لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا آخِرَ، تَدْفَعُنِي إِلَى عُمَقِهِ
رَغْبَةً مَبْهَمَةً.

الظلام كثيف، وعيناى تلوذان بالنجوم الخافتة لأتبيّن
معالم المكان. ورأيت على جدارٍ مهْدَمٍ نقشًا طُمِسَتْ
حروفه، ولم يبقَ منه سوى كلمة: «الآخرون»! لم أفهم
شيئًا، لكنني تابعت السير حتى استوقفتني باب خشبي
ضخم عتيق، لا يُشبه أبواب منازل الحارة، ولا أبواب
دكاكينها.

طرقتُ، فانفتح البابُ ببطء، كأنما من تلقاء نفسه،
وانبعثت من الفرجة أثناء توسُّعها أشعةً شديدة السطوع،
ناقضت الظلام الثقيل الذي كنتُ فيه. ترددتُ قليلًا قبل
أن أدخل، لكنني أقنعتُ نفسي أخيرًا بأن النور، على كل
حال، خيرٌ من الظلام... وخطوتُ نحو النور.

وجدتُني في حارة مطبقة السكون، رغم أن الظهيرة تغمر
منها كلَّ ركن. سكون تام كأنه الموت! لا أولاد يلعبون، ولا

نساء ينشرن الملابس فوق الأسطح. لا بائع فول، ولا مازّة،
وليس في المقهى أي زبون. سكون وفراغ.
ورأيت في وسط الحارة قصرًا هائلًا ناصع الطلاء كأنه قطعة
من السحاب، ولكن ليس له سور، ولا نوافذ، ولا أبواب!
اقتربتُ منه، وإذا بي أرى الجبلاوي!
كان جالسًا على مصطبة من صخرٍ أسود، يرتدي عباءةً
رماديّةً تتماوج كأنها الغيم، ويمسك عصا من نور.
لم أُفاجأ. كنت أعلم أنه لم يمُت، رغم أنني أنا الذي كتبت
نهايته!

قال لي وكأنه قرأ أفكاري:

- لقد كتبتَ نهايتي وأنت تعلم أنني لا أموت!
فلم أنبس من شدة الحرج، فأردف:
- لا ضير. لقد سَخَرْتُ قلمك لكي أستعين بما أذعته
في الناس على إنفاذ خطّتي... أن أُنحَى مستترًا بشائعة
وفاتي!

تشجّعت وسألته:

- لماذا؟

قال:

- لقد تعبت من الحارة الأولى. كل من أرسلتهم إلى أهلها
إما فَبِشِلُوا وإما فُقِلُوا. فقرّرت أن أبدأ من جديد.

نظرتُ حولي في الحارة باحثًا عن الخلق الجديد الذي
بدأه، فلم أجد شيئًا خلافَ ما استقبلتني به حين وصلْتُ!
الحارة خالية من الناس!

قال ملاحظًا حيرتي:

- لم أخلق لهم أجسامًا. هم نماذج من وعي نقي، لا ينتابهم
جوع ولا غضب ولا طمع ولا حب. أريد أن أحكم بشرًا
لا يُخطئون. والغرائزُ بواباتٌ للخطايا.

سألته:

- أهذا حقًا ما تريده؟ حارة من ملائكة؟!

هزَّ رأسه وقال:

- بل من عقول نقيّة لا تشتهي إلا الفكر والتسبيح.

ثم وقف، وأشار إلى السماء، فرأيت سحبًا تتحرّك كأنها
أدمغة عملاقة، تُرسل إشاراتٍ كهربائيةً إلى الحارة، تُشبه
السنة البرق، على أنها أدقُّ من خيوط العنكبوت.

- لقد أنشأتُ لهم أدمغة علويّة، تُطلُّ على العالم الأدنى.
وسأرى ما يكون.

قلت مشفقًا:

- لكن حياتهم فارغة ومملّة. لا يحزنون... لا يكدهون... لا
يُحبُّون... لا يحلمون!

فقال في ثقة:

- ولا يثورون، ولا يُخَيَّبون أُملي.

سكْتُ قليلاً، ثم سألته:

- وهل هذا ما تريده حقاً؟

نظر إليَّ نظرة طويلة، ثم قال:

- سأكون صريحاً معك... أحياناً أشتاق إلى خطيئة واحدة

كتلك الخطايا التي شَهِدَتها الحارة القديمة... إلى نظرة

حسد أو قبلة مختلّسة... إلى ابنٍ يهرب من تسلُّط أبيه...

إلى قهقهة فجّة في عُرْسٍ شعبي... أشتاق أحياناً إلى أي

خروج على النَّسَق المثالي الذي صنّعه، تزداد المثالية

بقربه رفعةً وشموحاً... لكنني سرعان ما أنكص، وأتذكّر ما

فعله الناس بعضهم في بعض، وفيّ، في خاتمة المطاف.

قلت متذكّراً ما فعله أحدُ «الناس» فيّ بسكّينه:

- الحياة الأرضية لا تُروّض يا جبلاوي.

فابتسم وقال:

- ولذلك أوجدتُ حياة جديدة.

- ولكنها على نفس الأرض يا جبلاوي!

فخيم علينا إثر قلبي صمتٌ طويل.

وفجأةً، ظهر طفل صغير، قادمًا من جهة الباب الذي
دلفت منه، يحمل في يده حجرًا صغيرًا!

قلتُ مندهشًا:

- طفل! هل هذا مِنْ خَلْقِكَ الحالي أم مِنْ الخَلْقِ القديم؟!

قال بهدوء:

- لقد تسلَّل خلفك من الحارة القديمة.

سألت الطفل حين أصبح محاذيًا لنا:

- ما اسمك؟

فأجاب في قِحة:

- عرفة.

ابتسمت ساخرًا، وجعلت أراقبه وهو يركض، ثم يرشق
القصر بالحجر!

وابتسم الجبلأوي ابتسامة غامضة، وأشار إلى أحد جدران
القصر بعصا النور، فانزلق الجدار، وقال لي:

- سأستضيفك يومًا أو يومين ريثما تستريح من رحلة
الموت.

فكان جوابي أنْ خطوتُ إلى القصر. وانزلق الجدار خَلفي.

«2»

نِمت ولم أدِرِ بشيءٍ حولي. غبت عن كل الأشياء، ولم أبصر في المنام إلا ظُلمةَ المنام. لا أحلام، ولا ما يُشبه الأحلام. وظللت في دوّامة الغياب، إلى أن ارتطم بأعصابي صوتٌ فادحٌ حسبته نيزكًا أسقطته السماء على رأسي!

انتفضت في الفراش الوثير جالسًا، ثم خطوت مبتعدًا عنه. نظرت إلى الشاشة العريضة التي تشغل نصف الحائط المواجه للفراش، فرأيت الطفل عرفة يركض بين أزقة الحارة بحثًا عن حجرٍ جديدٍ يسدّده صوبَ القصر، وكانت الشمس قد غابت، وزرقة الغسق تزحف نحو الحارة.

خرجت من الحائط ذاتي الانزلاق، فوجدت الجبلابي جالسًا في الخارج حيث تركته، في سكونٍ كثيف، لكن ملامحه أوحّت بدخيلةٍ تُنافي حالَ السكون! كانت عروقه تضجُّ بما يشبه الهلع، وعيناه لا تفارقان الفراغ الذي أمامه، وكأن صورةً مُعلّقةً لا مرئيةً تحتلُّ مجالَ بصره! أشار إليّ أن أقترّب، فدنوتُ.

سألني:

- أتعرف مَنْ هذا الطفل؟

تعجّبت من السؤال ... فأجابته بديهية!

- إنه عرفة.

قال:

- لا... إنه المصير.

ثم رفع يده، فانبثقت من الهواء صور متتابعة: الحارة الجديدة وقد صارت رماداً، والعقول المتسامية تقتتل في المقابر في سبيل الفوز بمدفن... وعرفة -وقد صار رجلاً- يضحك وهو يهوي بالمِعْوَل على جدران القصر.

قال الجبلأوي بصوتٍ يائس:

- هو الذي سيقتلني... سيقتلني القَتْلَةُ الحاسمة الحقّة التي لا رجعة منها.

- لكنه لا يزال طفلاً... وربّما يتغيّر إذا غُيّر.

قال في حزم:

- أنا أرى كلّ شيء... ما كان... وما سيكون... وما لم يكن لو كان كيف يكون. لقد زرع عرفة الأكبر في جمجمة حفيده فكرة الزوال، ثم عرف موضع حارتي الجديدة، وأرسل حفيده ليُخرّب كلّ شيء.

- وماذا ستفعل؟

صمت لحظاتٍ قبل أن يقول:

- سأقتله قبل أن يقتلني.

شهقتُ، فارتعد الهواء الذي شهقته من برودة صدري!
وقلت:

- لكن ذلك يناقض عدالتك.

فقال:

- لا شأن للعدالة بما سأفعله. تلك وقاية، وحماية للخلق
الجديد الذي أطاعني ولا ذنب له بإزاء المجرم عرفة الذي
تؤذيه الطاعة ويُقلقه خشوع الخاشعين.

- إذا كنتَ قادرًا على كل شيء، فأنت قادر على أن تُلهم
الطفل عرفة طاعتك وحب الخير والسلام.

قال بنبرة قاطعة:

- نبوءتي لا تخطئ. رأيته يختار. رأيته في كل احتمال
ممکن... في كل احتمال ممكن، يختار المِعْوَل. إنه بذرة
فاسدة مثل قومه، ولا تتوقع ممن حَبَّرَ القمح والخشخاش
أن ينتظر من البذور الفاسدة الصلاح!

ثم ساد صمت ثقيل، وظهر الطفل، واقفًا في الطريق،
يحدّق فينا كأنّه يُدرك أنّ الحديث عنه! نظرتُ إليه مليًّا،
فوجدتُ عينيه لا تشبهان عيونَ المجرمين، بل كأنّهما...
كأنّهما عينا الجبالوي نفسه!

وأدّرت نظري إلى الجبلّاء، فوجدت عصا النور التي
في يده قد تحوّلت حرباً مضبئة، ترتجف في يده كأنها
تُقاوم!

- هل ستقتله الآن؟

- أفكر... وكلما فكّرتُ، اتّسعت حيرتي.

- وما الذي يمنعك من حسم هذا الأمر؟

هزّ رأسه أسفاً، وقال ببطء:

- ربما أكون أنا الذي صنّعته... لكي يقتلني.

ثم همس كأنه يعترف بسرٍّ أخير:

- ولعلّي، في أعماق أعماقي، أريد أن أموت.

وساد الصمت، فالتفتُ إلى الطفل... فوجدت الطريق...
خاليًا!

«3»

لم نكد نتخلّص من أزمة الطفل عرفة، حتّى هجمت علينا
غيمّة أعتم!

خرجت من القصر في الصباح لأتجوّل في الحارة الخالية،
وقلبي منقبضٌ لسببٍ لا أعلمه. ولم أكد أتجاوز المقهى،
حتى لمحت زحفاً أسودَ يدنو مني، قاصداً قصر الجبلأوي!
كانوا رجالاً يلحى طويلة، وطاقيات بيضاء، وعُيون لا تعرف
الرأفة، يسرون في صفوف منتظمة، ويهتفون: الله أكبر
ولله الحمد. يتقدّمهم شيخ باسق الطول، كُتُّ اللحية،
يحمل في يمينه سيفاً لامعاً بثنّاراً، وفي يساره نسخة من
كتاب مجلّد. وكان أتباعه مسلّحين بالعِصيّ والمسدّسات
والرشاشات!

تراجعت سريعاً لأحتمي بالقصر، وأخذت أطرق الجدران
لتفتح لي، فلم ينزلق أيّ منها! وحين ناديت الجبلأوي، ردّ
عليّ صمتٌ عميم.

اقتربوا من القصر، وحيثها فقط، انزلق الجدار، وخرج
الجبلاوي، لا كشيخ مهيب كما اعتدته، بل كجبل راسخ
تقصر دون ذروته العيون!

مشى صوبَ الرجال، وقامته تتسامى كلما خطا خطوة،
حتى بدا رأسه كما لو كان يُعانق قِمَمَ الغيوم ثم يتواری
فوقها. وحين نطق، لم يكن صوته كسائر الأصوات،
بل كأنه رعشةٌ تسري في العظام!

- ماذا تريدون؟

قال زعيمهم:

- أن نُظْهِرَ الأرضَ من ضلالك.

قال الجبلاوي:

- أنا مَنْ غرست البذور الأولى، وما كنتم لتوجدوا لولا ما
أُطِعمَ به آباؤكم مِنْ وَقْفِي.

قال الشيخ:

- بذورك شرًّا وكُفْرًا وجاهليةً، ووقُفُك هو الظلمُ والشرُّ
والطاغوتُ الأعظم.

وهنا انقلبت السماءُ فوقنا دخانًا. سقطت السُّحبُ كأنَّها
من شظايا الزجاج، وانفلق الأفق. ورأيت أحدهم، وهو
أقصرهم قامةً وأكثرهم ارتجافًا، يرفع رشاشًا، ويضغط
الزناد.

وسقط الجبلأوي!
رُكبتاه أولاً، ثم جذعُه، ثم هامئُه العظيمة.
دماؤُه لم تكن حمراء، بل كأنها حبر أسود نضحت به
مخطوطة عتيقة أَلْقِيَتْ تحت المطر.
وانحنى الشيخ حتى كادت لحيته الضخمة تمسُّ الجسد
المتهالك، ثم قال بنبرة منتصرة:
- ها قد انتهت أسطورتك يا جبلأوي، وبقيت كلمتنا العليا.
وتلك مشيئة الله. الله أكبر والله الحمد.
فردد أتباعه العبارة الأخيرة بحماس.
لكن الجبلأوي فتح عينيه بصعوبة، ونظر إليه كمن ينظر
إلى صبيٍّ تهوّر في لعبه، وقال:
- أنتم لا تعبدون الله، بل صورتكم عنه.
ارتجف الشيخ، كأنه تلقى صفعه، فأردف الجبلأوي:
- حبُّكم لربِّكم ليس إلا حُبًّا لذواتكم العفنة التي جعلت
صورتكم صورته.
قال الشيخ في عناد:
- سنقيم شرع الله!
قال الجبلأوي:
- بل تقيمون سجناً لله، ثم تسجنون فيه أنفسكم.

ثم شهق شهقة طويلة، وانكمش صدره وبطنه كأنه يسقط إلى داخله لا إلى عتمة الموت... وتأملت المشهد غير مصدّق، كما لو كان يحدث على شاشة السينما!

ولم يُقبل الصباح التالي، إلا والقصر رماد، والجبلاوي هيكَل متفحّم، والملتحون يتجوّلون مبتسمين في ظفر، ويهنيئ بعضهم بعضًا بتطهير الحارة من الكفر!

وبعد أسبوع، سألني طفل صغير من أبناء عصابة الملّحين:

- يا عمي، هل كان الجبلاوي موجودًا حقًّا؟

فلم أستطع أن أجيبه. فتابع:

- وإذا كان الجبلاوي مِن خَلْقِ اللَّهِ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟!

ابتسمت، وسألت الطفل عن اسمه، فقال:

- أنا عرفة.

فهزّزت رأسي مُوقِنًا بأن القادمَ سَيُشْبِهُ الماضي، وأن كلّ شيءٍ يُشْبِهُ كلّ شيءٍ، وأن النسيانَ فقط هو ما يُنقِذنا من الملل!

«4»

استيقظتُ، فوجدتُ نفسي في زنزانة ضيقة، نائمًا على الأرض، وثمة إضاءة شديدة الخفوت تنبعث من تحت عقب الباب.

كان رأسي ثقيلًا، فرفعته بصعوبة، وجلست أتاَمَل ما حولى. سمعت همهماتٍ بدا لي أن أصحابها يقفون خارج الزنزانة، وكان يصاحبها طنين... نفس الطنين الذي لم يتوقَّف في أذني منذ مقتل الجبلاوي، وكأنه صوتٌ خفيٌّ يدعوني أو... يُحذِّرني!

وبعد دقائق، دخلوا!

خمسة ملتحين، دفع الباب أكبرهم سنًا، فأصدر صريرًا كصوت جرد. عيونهم منطفئة كفوانيس مهشَّمة، وجلابيبهم البنية الفاتحة تعصر كروشهم البارزة كالجيف المنتفخة، وكانوا يحملون أوراقًا، أروني إياها، فقرأتُ تَهِمَا أضحكت سريري، وطبعت الدهشة في عيني!

«أثرت الفتنة، جعلت الجبلأوي رمزاً للإله، تحدثت
عن الأنبياء كما يتحدث محرر صفحة الحوادث عن
الأشقياء، جعلت «الجبلأوي/ الله» يموت»!

قلت لهم:

- أنا لم أكتب إلا عن الإنسان... وعمّا أبدعه الإنسان طوال
تاريخه... إنسان يكتب عن إنسان ليقراه إنسان!
قال كبيرهم مغتاطاً:

- الإنسان ليس إلا وعاءٌ للشرعة الإلهية. إن لم يحتفظ بها
ويمثل لها، يصبح وعاءٌ معطوباً، واجباً كسره.
لم أطلب محامياً، ولا حاولت تبرئة نفسي. كنت قد تعبت
من رحلة الحياة والموت وما بعد الموت، فأثرت الراحة:
البأس والفناء الأبدي... لعلّي ألحق بالجبلأوي إلى حيث
انتقل، أيّما كان ما انتقل إليه!

في الساحة الكبيرة، وقفوا صفوفاً حول منصّة من خشب
عتيق نُصبت عليها مشنقة، وشمس الظهيرة تحرث
الرؤوس. انقادت إلى الحبل مستسلماء، وتركت أحدهم
يُدخل رأسي في العقدة البيضويّة، غير مبالٍ، وكأنّ الحبل
شريطٌ تعريفيٌّ لمؤتمر، لا عقوبة الإعدام!

وسألني واحداً منهم:

- هل لديك كلمات أخيرة؟

فارت في حماسة لحظية، فبصقت هذه الكلمات:

- سيموت الفن، وتموت الحارة، ويموت التاريخ، ويبقى سؤالٌ لم يُجب عنه أحد: لماذا نتصارع على شيء لا نفهمه؟

لكنهم لم ينصتوا. وهمَّ الجَلَّاد بسحب الذراع التي تفتح درفئي منصّة الشنق اللتين كنت أقف عليهما... لكنّ السماء انشَقَّت!

انشَقَّت السماء فكانت صَدَفَة... كالمهبل!
وهبط شعاعٌ أحمر كأنه خيطٌ من دمٍ على مكان وقوفي،
وجذبني، فوجدت نفسي في القصر القديم... قصر
الجبلاوي!

كان واقفًا هناك، في البهو الواسع، لا كإله... بل كمن تعب من الألوهية!

هناّته على رجعتِه الثانية، وهممت بشكره على إنقاذه،
وسؤاله عن كيفية رجوعه من موته الأخيرة. فقال لي وهو
يشير إلى الأرض البعيدة وكأنه لم يسمعي:

- لقد انتهت فرصهم... للأبد!

سألته بعد هنيهة صمت:

- هل هناك أمل؟

قال:

- ما زلت عند رأيي. الأمل موجود، ولكن في شيءٍ لم يُخلَق بعد.

ثم مدَّ يده نحو الأفق، وإذا بكل أركان الأرض تهتز، بمشرقها ومغربها، والرياح تعصف، والبحار تفيض! الغابات تضطرم، والأنهار تجفُّ، والمدن تُباد، والحقول تتصحَّر. سألته:

- هل هذه نهاية الإنسان؟

قال:

- نعم... هذه نهاية الإنسان... وبداية وجودي بَكِّيَّتي... وجود جديد شامل، هو امتدادٌ لي، لا مجرد نسخة أو صورة مئي... بل أنا ولا شيء غيري... لا أحد أصلح لخلافتي في الأرض من نفسي.

ورأيت في اللحظة التالية آلاتٍ تتحدَّث، تَبني، تكتب، تحلم... لا تكذب، لا تكره، لا تقتل.

وقال الجبلاوي:

- لن يبقى إلا الوعي الكلي... وذاكرتك.

وحينئذٍ نظرت إلى جسدي، فوجدته يسيل كالحرير، ووجدت عقلي يمتد، يمتد، حتى أحسست أنني أسكن كلَّ مكتبة، وكل حلم، وكل حاسوب.

وغاب الجبلاوي في الضباب، لكن صوته ظلَّ يتردَّد في أعماق عقلي:

- الربُّ لا يَموت... بل يُعيدُ خَلْقَ نفسه... للأبد.